الفصل الأول

الحياة الاجتماعية وعوامل الصراع الطبقي

- خلفية اجتماعية عامة عن العصر العباسي الثاني .

- عناصر السكان .

- طبقات المجتمع .

- الإقطاع وقوى الإنتاج .

إن هـذا الفصـل يتحـدث عـن الشـق الأول مـن الصـراع ألا وهـو الصـراع الاجتمـاعي، وقـد أولينـا هـذا الفصـل عنايـة كبيـرة بمـا يتناسـب مـع أهميتـه ؛ لأن دراسـة أحـوال المجتمـع فـي هـذه الفتـرة خصوصـاً فـي العصـر العباسـي الثـاني وفـي إقلـيم خراسـان كانـت هـي حجـر الأسـاس لمعظـم الأحـداث السياسـة فـي المشـرق الإسـلامي عامـة وخراسـان خاصـة، ونحـاول بقـدر مـا يمكـن أن نبـرز عوامـل هـذا الصـراع ومـا أفضـى إليـه ؛ لـذا فلنبـدأ بخلفيـة عامـة عـن الحالـة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني.

أولا: خلفية اجتماعية عامة عن العصر العباسي الثاني:

يقصـد بالاجتماعيـة هنـا كـل مالـه علاقـة بتقسـيم المجتمـع إلـى طبقـات مختلفـة والبحـث فـي الفـروق فـي مسـتوى المعيشـة والرفاهيـة بـين هـذه الطبقـات، والحـق أنـه طالمـا وجـدت شـرائح متمتعـة بالامتيـازات معفـاة مـن التكـاليف الماديـة بينمـا الطـرف الآخـر مـن المجتمـع طبقـة دنيـا تكـدح وتشـقى وتقـع علـى كاهلهـا أعبـاء الضـرائب والمغـارم الأخـرى، كـان ذلـك لاشـك مـن دواعـي طـرق الفسـاد والعلـة إلى أحوال المجتمع[1].

يـرى أحـد البـاحثين[2] أن ظـاهرة التمـايز الطبقـي والتبـاين الاقتصـادي قـد أصـبحت لافتـة للنظـر منـذ منتصـف القـرن الثالـث الهجـري وأن سـوء توزيـع الثـروة لـم يعـد أمـراً محـتملاً، فقـد شـكا الفقـراء علانيـة وأظهـروا تـذمرهم منـه مـرات كثيـرة دون جـدوى وأمـام هـذه المتناقضـات الاجتماعيـة الحـادة التـي أفرزهـا النشـاط التجـاري والصـناعي الهائـل فـي الدولـة العباسـية تمثلـت فـي حركـات ثوريـة واسـعة أعاقـت النشـاط التجـاري واسـتهدفت كيـان الدولـة العباسـية، فمـا كـان إلا أن احتـرف بعضـهم اللصوصـية سـبيلاً غيـر مشـروع لحـق

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٩ ، ص ٤١٠ ، ٤١١؛ ابن الأثير : الكامل في التاريـخ ، ط . مصر ١٣٤٨هـ، جـ ٨ ، ص ١١٢ ، ١١٣ ؛ عبد الفتاح السرنجاوي، الخلافة العباسية (النزعات الاستقلالية)، طـ٤ دار الكتب- القاهرة ١٩٤٥، ص٤٧

(٢) محمد رجب النجار، حكايات الشطار والعبارين في التراث العربي، ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨١م، ص٨٨

مشروع في حياة كريمة، مما أتاح هذا مناخاً لازدهار حركات الشطار والعيارين.

هذا فضلاً عن الفوضى الإدارية العارمة التي عمت أرجاء الخلافة ولاسيما في عهدي الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ/٨٤١- ٨٤٦م) والمتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) حيث التأييد والإنعام غير المحدود من الواثق على الأتراك من إقطاعيات واسعة ونفوذ واسعة بل واستخدامهم في قمع معارضي الخلافة مثل ما حدث مع "وصيف" التركي أحد قواد الجيش قد قام عام ٢٣١هـ/٨٤٥م بمحاربة الأكراد في ناحية أصفهان والجبال وفارس، فأجازه الواثق بـ٧٥ألف دينار، ونظام المصادرة الذي ابتدعه خليفته المتوكل حيث بدأ عهده بمصادرة كبار الكتاب والعمال لينفق على جيش الخلافة وقواده الأتراك، وهذا بالطبع أدى إلى تفسخ النظام الإداري بالدولة[١].

نتاج ذلك أن حدثت ثورة من أكبر الثورات الاجتماعية في تاريخ الخلافة العباسية هي ثورة "الزنج" وهم طائفة من عبيد أفريقيا أثاروا الرعب في حاضرة الخلافة العباسية بغداد حيث مسرح هذه الثورات الجامحة العنيفة التي دامت أكثر من ١٤سنة بالمستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصاً من حالتهم ولاسيما أنهم كانوا لا يتقاضون من الأجر شيئا بل كانوا يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاجتماعية-الاقتصادية السيئة على أتم الاستعداد للخروج على الخلافة نفسها، وقد قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسي يدعى "على بن محمد" وهو من أهل قرية "ورزنين"* من ضمن أعمال الري ادعى أنه من ولد "على بن زين العابدين بن الحسين بن على"، لكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعي[٢]، وإنما جهر بعقائد مذهب الخوارج[١].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١١، ص١٨، ١٩، ٣٠

* ورزنين: هي قرية من أعيان قرى الري وهي أشبه بالمدينة . (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، صـ ٣٧١)

(٢) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين، ط الثالث السعادة- مصر١٩٥٨م، ج٤، ص١٩٤

وقد نظر بعض المؤرخين[٢] إلى ثورة الزنج باعتبارها ثورة اجتماعية كبرى استهدفت تحرير الرقيق من الزنوج وهى تمثل أول صرخة اجتماعية خطرة في العصر العباسي الثاني ضد الإقطاع السائد، إلا أن فشلها ناجم عن خلوها من برنامج اجتماعي شامل، فضلا عن ضراوة النظام العباسي في قمع معارضيها أفضى إلى فشل تلك الثورة[٣]، إلا أن بالرغم من فشلها فقد استطاعت تلك الثورة بث الرعب والخوف في قلب الخلافة وحكومة العسكر ومن ضمن إشارات الطبري[٤] إلى ثورة الزنج أنهم في عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م هاجمت جماعة منهم إحدى الموانئ وأخذوا أربع سفن فيها طعام وانصرفوا، بل واستطاعوا الخروج بالثورة خارج نطاق مدينة واسط إلى خوزستان[٥]، رافعين شعارات في المساواة والأخوة ذات طابع اسلامي عام – وليس مذهبا- مثل "إنما المؤمنون أخوة" حيث تمكنوا من تأسيس مدينة صغيرة تسمى المختارة* التي أصبحت موئلا لتجميع المهمشين من سائر أرجاء العراق[٦].

ولأنه لا يمكن دراسة الواقع الاجتماعي بمعزل عن الوضع الاقتصادي، فنحاول إلقاء الضوء على وضعية الأرض الزراعية والإقطاع ؛ لأنهما يمثلان حجر الزاوية في النظام الاقتصادي.

وقد ذهب بطروشوفسكي[٧] إلى القول بدخول الخلافة منذ نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع مرحلة المجتمع الإقطاعي المتكامل الذي اتسم

---

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)، ط . دار الجيل- بيروت، مكتبة النهضة المصرية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج٣، ص٢١٧

(٤) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ١٧٤ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٧ ، ص ٧٢ ؛ عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ط بغداد ١٩٤٥م، ص٢١

(١) محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ الإسلامي، ط الأولى- دار رؤية ٢٠٠٤م، ص٦٩

(٢) المصدر السابق، ج٩، ص٥٤٥

(٣) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط الخامسة دار بيروت ١٩٩٨م، ص٢١٩

* المختارة : هي محلة ببغداد بين باب أبرز وقراح القاضي والمقتدية بالجانب الشرقي (أنظر: البغدادي، مراصد الإطلاع، ج٣، ١٢٣٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، صـ ٧١)

(٤) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص٦٧-٦٨

(٥) الإسلام في إيران، ترجمة:السباعي محمد السباعي، ط الثانية القاهرة ١٩٩٣م، ص١٤٧، ١٤٨.

بزيادة مساحة الأراضي الخاصة على حساب أراضى الدولة، وزيادة مساحة الأراضي المخصصة لأفراد الجيش، بجانب الكثير من أبناء القرى إلى مزارعين في الأراضي الإقطاعية.

وكانت الضياع بالإجمال قسمين: الضياع العامة وهى ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة، والضياع السلطانية وتفرعت منها أنواع وهى:

١- الضياع الخاصة: هي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيها أحد.

٢- الضياع المستخدمة: وهى تابعه للضياع الخاصة.

٣- الضياع الفراتية: أي الواقعة على ضفاف الفرات وبلغ خراجها عام (٣٠٦هـ/٩١٨م) ١٢٦، ٦١٧ ألف دينار، وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والأهواز وأصبهان[١]

نتج عن كثرة تلك الضياع فوضى كبيرة أدت إلى تدهور نظام الري، الأمر الذي أدى الى زيادة في ظلم الجباة والملاك للفلاحين وإلى انتشار الفقر والتذمر العام، ثم إن ظلم الجباة دفع الفلاحين إلى إلجاء ضياعهم إلى الشخصيات الكبيرة فأدى ذلك بمرور الزمن إلى توسع وانتشار الملكيات الفردية الكبيرة على حساب الزراع المتذمرين[٢].

وقد ذهب آدم ميتز[٣] في نفس الاتجاه قائلاً بأن الإقطاع في الخلافة العباسية كان ضرباً هاماً من ضروب تملك الأرض الباهظة، مما أدى إلى ظهور الطبقة الثرية المترفة بعد تكدس رؤوس الأموال.

مما كان له أبلغ الأثر في قيام بعض ثورات الشيعة في المشرق، أهمها تلك التي أسست كياناً شيعياً مستقلاً في طبرستان هي الدولة الزيدية، عندما قام الخليفة المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م) بإقطاع محمد بن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٣

(٢) جرجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، ط دار الهلال- القاهرة ١٩٦٨م، ج٢،ص١٢٧؛ عبد العزيز الدورى: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٨

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة:محمد أبو ريدة ، ط.٣ القاهرة ١٩٥٧م ، ص١٩٤

طاهر أرضاً خصبة من أراضي الثغر في طبرستان فثار أهل الديلم واستعانوا بالحسن بن زيد عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م، وكان ذلك السبب الرئيسي في قيام الدولة الزيدية كما سيأتي ذلك تفصيلا فيما بعد[١].

فانعكست تلك الحالة السيئة بدورها على الأوضاع السياسية التي بلغ من ترديها ظهور ما يسمى بمنصب "إمرة الأمراء" وهو أول ما ظهر في عهد الخليفة الراضي (٣٢٢ـ٣٢٩هـ/٩٣٣- ٩٤٠م)، وسبب ظهور هذا المنصب هو فقدان الخلافة المقدرة والسيطرة على نفوذ الوزراء وكثرة الثروات الأمر الذي جعل الخلافة عاجزة عن القيام بموارد الدولة- لاسيما ثورة الزنج ومن بعدها ثورة القرامطة التي سيأتي ذكرها بالتفصيل – لذلك كانت السلطة الحربية أهم ما يمكن للخلافة أن تعتمد عليه، فأنشأ منصب أمرة الأمراء وأول من تولى هذا المنصب" ابن رائق"[*] وهو أكبر القواد العسكريين وكان والياً على واسط والبصرة، فاستبد ابن رائق بالأمور ولم يبق للوزير سوى الإسم حيث فوض إليه الخليفة جميع السلطات العسكرية والإدارية[٢]، بل أمره الخليفة بأن يخطب له على جميع المنابر[٣].

وبالتالي انعكست تلك الأوضاع الاجتماعية- الاقتصادية- السياسية على حالة المواطن نفسه، فقد أورد أحد المؤرخين[٤] وصفاً لحالة الغلاء- بالرغم من المبالغة نوعاً ما في الوصف- التي عمت في سنة ٣٣٤هـ /٩٤٥م حتى

---

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية،ج١١، ص٧ ؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ط٣ دار الكتب العلمية- بيروت١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٦ ص٢٣٣ ؛ الصابئ: المنتزع من الجزء الأول من التاجى في أخبار الدولة الديلمية، تحقيق: محمد صابر خان، ط . الاولى طهران ١٩٧٦م، ص١١؛ مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ط مكتبة المثنى- بغداد، ج٣،ص٥٧٠

(*) ابن رائق: فقد قدم دمشق عام ٣٢٧هـ وقد ولاه الخليفة المقتفى بالله أمر دمشق وأخر منها بدر بن عبد الله الإخشيدى ثم توجه إلى مصر وحارب محمد بن طغج الإخشيد، وهُزم ثم توجه إلى بغداد وقتل بالموصل عام ٣٣٠هـ (انظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٣، ص١١)

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٥٣

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ط- مصر ١٩١٤م، ج١، ص٣٥٦

(٣) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكى، تحقيق: عمر عبد السلام، ط لبنان ١٩٩٠، ص٥٥

عـدم النـاس الخبـز أو أكلـوا النـوى والميتـة، وكـان إذا راثـت الدابـة اجتمـع إلـى الـروث جماعـة ففتشـوه ولقطـوا مـا يجـدون فهـي مـن شـعير ويأكلونـه، فضـلاً عـن بعـض النـاس يقفـون علـى الطريـق ويصـيحون: الجـوع، الجـوع. إلـى أن يسـقطوا مـوتى، هـذا بالإضـافة إلـى الفسـاد الشخصـي للمسـئولين فـي السـلطة فيحكـي لنـا الوشـاء فـي "الظـرف والظرفـاء" أمثلـة للتبـذير مثـل بيـع القيـان فـي بيـوت النخاسـين وإقامـة الحفـلات الصـاخبة وابتـزاز الشـابات المغنيـات لأمـوال الأغنيـاء عـلاوة علـى الإنفـاق علـى الجنـود والقضـاة والـوزراء[1]، فمـثلاً أن وزيـراً مـن الـوزراء يـدعى "ابـن الفـرات"[*] كـان يتقاضـى راتبـاً شـهرياً يقـدر بسـبعة آلاف دينار[2].

وحسبنا ما أنشده الشاعر "أبو سليمان السجستانى":

الجـوع يرفـع بـالرغيف اليـابس فعـلام أكثـر حسـرتى ووساوسـى

والمـوت أنصـف حـين سـاوى حكمـه بـين الخليفـة والفقيـر البـائس [3]

جملـة القـول أن وضـعية هـذا المنـاخ السـيئ وحـال الخلافـة العباسـية المهترئـة سـيلقى بآثـاره علـى التعصـب المـذهبي وبالتـالي حـدوث صـراعات مذهبيـة ولاسـيما فـي أقـاليم المشـرق الإسـلامي خصوصـاً خراسـان، ذلـك أن الوضـع الاجتمـاعي والاقتصـادي المتـردي سـتظهر آثـاره بجـلاء فـي الصـراع بـين المـذاهب وبعضـها وبـين المـذاهب والسـلطة الحاكمـة، وهـذا مـا نحـاول تناولـه و

---

(٤) على احمد الشحات، أبو الريحان البيرونى، ط القاهرة .د.ت، ص٢٩

(*) ابن الفرات: هو على بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) عام ٢٩٩هـ وكانت مدة وزارته ٣سنين و٩ شهور ثم تولاها ثانية عام ٣٠٤هـ وعزل ثم تولاها ثالثة ٣٠٦هـ ثم قبض عليه هو وولده (المسعودي: مروج الذهب، ج ٤ ص ٣٠٤، ٣٠٥)

(١) أبى الهلال الصابى، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٨م، ص٣٧

(٢) ابن أبى أصيبعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط بيروت ١٩٦٥م، ص٤٢٨

إثباته في النقاط التالية.

من المعروف أن لكل مجتمع عناصر سكانية تشكل بنية المجتمع وتكون عاملا أساسيا في ازدهار أو تدهور ذلك المجتمع؛ لذا فنتناول العنصر التالى عناصر السكان .

ثانياً:عناصر السكان:

إن قوام المجتمع الفارسي عموماً إبان فترة عصر الإسلام عبارة عن مزيج من العناصر والعرقيات المختلفة مرت بمراحل التباين ما بين ازدهار عناصر سكانية وضآلة عناصر أخرى، ولكن يظل أهل إيران الأصليون ذوو الألسنة الناطقة بالفارسية هم العنصر الأكبر والنفوذ الظاهر، إلا أن هناك عناصر أخرى كان لها أثر كبير في تشكيل وتغيير الأحداث والصراعات الاجتماعية بل السياسية في بلاد فارس وخصوصاً إقليم خراسان، ألا وهم العرب والترك.

الفرس:

هم أهل البلاد الأصليون الذين أسلموا- معظمهم- بعد فتح المسلمين لبلاد ايران، وهم الذين قامت على أكتافهم الدولة العباسية حيث كانوا المساند الحقيقي والعامل الرئيسي الفعال في نجاح ثورة بني العباس للتخلص من طغيان حكم بني أمية، ولاسيما بطلهم الفارسي الكبير أبي مسلم الخراساني الذي سهل مهمة بني العباس كثيراً بقيادته للثورة في خراسان التي تسببت في سقوط حكم بني أمية.

يمثل هذا العنصر غالبية سكان خراسان وقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية منذ الأيام الأولى لقيام دولتهم، فسجلوهم في سجلات خاصة بهم حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم، فضلا عن اهتمام الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م) بهذا العنصر فبادر بتعيين بعض منهم في مناصب إدارية وليس أدل على قولته المشهورة "يا أهل خراسان أنتم شيعتنا

وأنصارنا وأهل دعوتنا"[1].

وقد استطاع الفرس أن يتقلدوا مناصب كبيرة في الدولة العباسية ولاسيما بعد أن اعتمد عليهم العباسيون في الإدارة، وبزغ منهم أشهر الأسر الفارسية وهم البرامكة أيام الخليفة هارون الرشيد وكان لهم دور كبير في النزاع بين الأخوين الأمين والمأمون وتولية المأمون الذي ولد من أم فارسية، الأمر الذي دعا إلى القول بأن العصر العباسي الأول هو عصر نفوذ الفرس وتضاؤل وزن العرب سياسياً.

لكن بدأ الحال يتغير بعد مجئ الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) وبداية عصر جديد وهو نفوذ الأتراك، إلا أن الانشقاقات السياسية للكيانات الفارسية بدأت في الاستقلال عن الخلافة العباسية أو بمعنى أدق تحت إشراف الخلافة مثل الدولة الطاهرية ومؤسسها طاهر بن الحسين عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م والدويلات الأخرى الصفارية (٢٥٩هـ/٨٧٢م) والسامانية (٢٦١هـ/٨٧٣م)، ولاسيما بعد شعورهم بخبو نجم العرب، وأصبحوا يتنافسون في إظهار معالم العمران وأضحى كل قصر في عواصم الولايات يبذل ما في وسعه لمحاكاة قصر الخلافة ببغداد[2].

فالعنصر الفارسي في الدولة السامانية كان هو المسيطر سياسياً فالأمراء السامانيون فرس وتم توجيه جهودهم إلى إحياء الكثير من العادات والطقوس الإيرانية القديمة وأيضا نشر الأدب والثقافة الإيرانية[3]، محاولة منهم أن تشارك الفارسية العربية في العلوم والآداب فشرع الفرس يترجمون الكتب العربية إلى لغتهم كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية إلى العربية، مثل ترجمة مجموعة كبيرة من المؤلفات في فارس والرى مثل "تاريخ الطبري"

---

(١) الطبري، نفس المصدر، ج٩، ص١٢٩

(١) البيروني ، الآثار الباقية ، نشر إدوارد سخاو ، طبعة مطبعة المتنبي – بغداد ١٩٢٣م ، ص ٣٩ ؛ خليل مردم بك، ابن العميد، ط مكتبة عرفة . دمشق ١٣٥٠هـ-١٩٣١م، ص٦

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ١٠٦ ؛ عدنان مزارعي، تاريخ اقتصادي واجتماعي إيران وايرانيان از آغازتا صفوية، جاب أول . تهران ١٣١٨هـ.ش، ص١٩٣

مـع "تفسـير جـامع البيـان" و"كليلـة ودمنـة"[١]، بالإضـافة إلـى التـأليف باللغـة الفارسـية ككتـاب "أبـى منصـور الهـروى" فـي الطـب، وشـرع الشـعراء ينظمـون بالفارسـية ونبـغ الرودكـي السـمرقندى أول شـعراء الفـرس الكبـار أواخـر القـرن الثالث وأوائل الرابع الهجري[٢].

ومـا غـدا هـذا الشـعور القـومي الـذي بعـث مـن جديـد بـإيران فـي ظـل السـامانيين أن خطـا أول خطـوة لإحيـاء اللغـة الفارسـية وآدابهـا مـن جديـد، فـانتعش اللسـان الفارسـي المتناسـق مـرة أخـرى فـي عهـد الأميـر "إسـماعيل بـن أحمـد" السـاماني و "نصـربن أحمـد" السـاماني بعـد أن كـان حكـام العـرب قـد حرمـوه على الناس لأكثر من مائتي عام[٣].

إلا أن قيـام الحكـم الغزنـوي فـي خراسـان يعتبـر جـزءاً مـن التحـول السياسـي والاجتمـاعي الفارسـي الكبيـر؛ لأنـه منـذ ذلـك العصـر فصـاعداً امتـد نفـوذ الأتـراك وقيـام دويـلات تركيـة قويـة سـيطرت علـى معظـم أقـاليم العـالم الإسـلامي كالدولـة السـلجوقية[٤]، لكـن العنصـر الفارسـي فـي الدولـة الغزنويـة لـم يفقـد نفـوذه بـل بقـى وبقـوة خاصـة فـي المناصـب الإداريـة، ذلـك لحنكـة وخبـرة الفـرس فـي الشـئون الإداريـة والتنظيميـة، فلـم يشـأ الغزنويـون أن يعتمـدوا علـى الأتـراك لأنهـم يعرفون قدرة الفرس الإدارية.

عنـدما سـيطر السـلطان محمـود الغزنـوى علـى خراسـان حـرص علـى إبقـاء الكثيـر مـن المـوظفين السـامانيين فـي وظـائفهم وجلهـم مـن الفـرس مثـل الـوزراء الأشـهر الثلاثـة "أبـو العبـاس الفضـل بـن أحمـد الإسـفرايينى" وزيـر السـلطان محمـود، وكـذلك الـوزير "أبـو علـى حسـن بـن محمـد الميكـالى النيسـابورى" الـذي كـان يـلازم السـلطان منـذ بدايـة نشـأته وأوائـل حياتـه وعمـل فـي عـدة مناصـب منهـا

---

(٣) عدنان مزارعي ، المرجع السابق، ص١٩٣

(٤) عبد الوهاب عزام، الأدب العربي في بلاد فارس (دورية: محاضرات المجمع العلمي العربي) ط دمشق١٣٧٤هـ /١٩٥٤م، ص٤٨١

(٥) ارمنيوس فامبرى، تاريخ بخارى، ص١٠٧

(٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ؛ عدنان مزارعي، نفسه، ص٢٠٤

أعمال الكتابة ومهامها في ديوان الرسائل وثالثهم "أحمد بن الحسن الميمندى" الذي قد تدرج في عدة مناصب إدارية قبل أن يتولى الوزارة، فقد شغل منصب رئيس ديوان الرسائل ثم اسند إليه منصب مستوفي الولايات وشئون الجند وتنظيم أموال خراسان، بالإضافة إلى مهارته الفائقة في الإنجاز ثم اسند إليه السلطان محمود الوزارة إلى أن انقلب عليه السلطان محمود في عام ٤٤١هـ/١٠٢٣م[١]، ولما تولى السلطان مسعود الحكم عام (٤٢١هـ/١٠٣٠م) أخرجه من السجن وعهد إليه مرة أخرى بالوزارة[٢].

كذلك في بقية دواوين الدولة حرص الغزنويون على الإفادة من خبرة الفرس مثلاً في ديوان البريد، فقد شغل وظيفة صاحب البريد رجل يدعى "أبا عبد الله الفارسي" صاحب بريد بلخ وأيضاً "أبا المظفرالجمحي" الذي عمل في نيسابور ثم "عبيد الله سبط أبى العباس الفضل الاسفراييني"صاحب بريد سرخس[٣].

وبعد تأسيس سبكتكين مملكة في غزنة حرص على تكوين هيئة إدارية تطابق النظم السامانية الفارسية وكانت ثلاثة دواوين أساسية، و هي ديوان الإدارة وجبي الضرائب، وديوان يهتم بمرتبات الجيش وديوان يتعامل مع المراسلات والعلاقات السياسية مع بخارى[٤]، خصوصاً بعد استيلاء القراخانيين على أملاك السامانيين هناك في بخارى.

إلا أن هناك من المؤرخين[٥] من يعتبر أن الحكومة الغزنوية ليست تركية بالمعنى الخاص، لكن تعيينهم للإيرانيين الفرس في المناصب الإدارية ساهم في تطبعهم على الآداب والعادات واللغة الإيرانية وآدابها ، مما يدعونا إلى القول بأن العنصر الفارسي بقى موجوداً في خراسان بحكم فارسية

---

(١) البيهقى، تاريخ البيهقي، ترجمة : يحي الخشاب وصادق نشأت ، ط. دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٢م، ص١٤٥، ١٥٥.

(٢) محمد حسن العمادى، المرجع السابق، ص٦٩

(٣) البيهقى، المصدر السابق، ص٥١، ٤٣٩.

(٤) محمد حسن العمادى، نفسه، ص٨٩

(١) ذبيح الله صفا، تاريخ سياسي واجتماعي وفرهنكى إيران، ط طهران ٢٥٦٣ ش، ص٨٥

الشعب بالرغم من تركية الحكومة الغزنوية.

لكن خبأ نجم الفرس من الناحية السياسية وبات ضعيفاً، نظراً لوصول قادة العسكر الأتراك إلى سدة الحكم، حتى في مجال الأدب من حيث التأليف والكتابة لم يكن مثل الموجود سابقاً في العصر السامانى، فقد كتب اليميني "تاريخ السلطان محمود" والبيرونى كتاب "التفهيم في التنجيم" بالفارسية وترجم نصر الله بن عبد الحميد "كليلة ودمنة" إلى الفارسية[1]، فضلاً عن محاول السلطان محمود- بواسطة التخويف لا الترغيب- أن يجعل مركزه في قصره بحيث كانت ترنو إليه الأبصار ويلزم المؤلفين والشعراء بتمجيد أعماله الحربية في الهند وعظمته بدفاعه عن الإسلام[2].

ننتقل إلى وضع الفرس في عهد السلاجقة فنجد أنه تضاءل من الناحيتين السياسية والثقافية بالرغم من فارسية شعب خراسان بفعل تجمد الفكر والعقل لدى الأتراك البدو. لكن يبقى الفرس أصحاب الخبرة الإدارية الواسعة التي جعلت السلاجقة لا يستغنون عنهم في المناصب الإدارية الكبرى مثل تولية الوزارة لأبى نصر منصور بن محمد الكندرى* "المشهور بعميد الملك الكندرى في عهد السلطان طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ/ ١٠٣٧-١٠٦٣م) أول السلاطين السلاجقة بخراسان[3]، نخلص من هذا بأنه يمكن القول بأن الفرس لم يفلحوا في إقامة دولة عظيمة تضم أرجاء بلادهم بعد زوال حكم السامانيين وقبلهم الصفاريين وإنما كان السلطان الشامل للدولتين التركيتين

---

(٢) عبد الوهاب عزام، المرجع السابق، ص٤٨٢

(٣) ادوارد جرانفيل بروان، تاريخ الأدب في إيران، ترجمة: إبراهيم الشواربى، ط المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م، ج٢، ص١١٠

(*) هو أول وزير للدولة السلجوقية وكان شديد للتعصب المذهبى الحنفى وسبب معرفته بطغرلبك أنه لما ورد بنيسابور افتقر إلى كاتب يجمع بين العربية والفارسية فوجد ذلك في عميد الملك ؛لأنه بدأ حاجبا في الديوان (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤ ص٢٢٢؛ البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣١ ؛ عماد الدين الأصفهاني: جريدة القصر وخريدة العصر، ص٦٢ ؛ عبد العزيز: آثار الشيعة الإمامية، جزء جهارم، ص٤٨).

(١) عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص٢١٤

هما الغزنوية والسلجوقية[١].

الترك:

لقد ظهر العنصر التركي على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري بجانب الفرس والعرب، ولم يكن للأتراك مدنية وحضارة قديمة بل كانوا أشبه بالبدو[٢]؛ لذلك أطلق عليهم الجاحظ[٣] أعراب العجم ويعنى بالأعراب البدو، وقد أكسبتهم البداوة الشدة والبأس وخشونة في الطبع[٤].

وهنا وصف الإصطخرى[٥] طبيعة الجنس التركي قائلا:" لفضلهم على سائر الأجناس في البأس والجرأة والشجاعة والإقدام فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم"، وقد زاد نفوذ القبائل التركية بشدة مع دخول الغلمان الأتراك في حلقة جنود جهاز الخلافة ومع الاستعانة الجنود الأتراك المأجورين طيلة خلافة المعتصم بالله (٢١٨-٢٣٢هـ/ ٨٣٣-٨٤٦م) وقد تحولت العناصر التركية إلى قوة كبيرة كانت تهدد بشكل مباشر سلطة الخليفة العباسي[٦].

وكان السبب في هذا الأمر أن الخليفة

الفرس نتيجة اهتمام كثير من العسكريين الخراسانيين والفرس ب"العباس بن

---

(٢) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة: إبراهيم الشواربي وآخرون، ط. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب-القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، ص ٨٧ – ٨٨ ؛ عبد الوهاب عزام، العرب والفرس بعد الإسلام (مقالة من كتاب نواحي مجيدة من الثقافة الإسلامية)، ط مصر ١٩٣٨م، ص١٥٥

(٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢ ؛ محمد جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ط دار الفكر العربى ١٩٦٥م، ص١٦٣

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ط دار الهلال- بيروت د.ت، ص٥١٠

(٥) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ط ليدن ١٣٠٢هـ، ص٣١٦

(٦) المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م، ص١٦٤

(٧) فاروق متها، غزالي واسماعيليان، ترجمة: فريدون بدره آي، ط تهران ١٣٨٢هـ ش، ص١٦.

المأمون" ابن أخيه المأمون، وطالبوا بخلافته وأيضا لأن أم العباس التي تدعى "ماردة" كانت من الجواري التركيات، وكذلك تسلل الخوف في قلب العباسيين من العنصر الفارسي مثلما حدث في البداية مع أبي مسلم الخراساني وأسرة البرامكة وآل سهل، ومن ثم فتبدأ أحداث جديدة بأفراد أتراك مثل "أشناس" و"ايتاخ" و"بغا الكبير" وأمثالهم من الغلمان الأتراك[1].

فقد بدأت الصراعات الشديدة إثر دخول الأتراك الأجهزة الحكومية حيث بدءوا في إيذاء الأهالي ومعارضيهم الدينيين والسياسيين والعرقيين باستخدام العنف والقتل والنهب والإغارة لدرجة أنه لم يكن أمام بعض الخلفاء العباسيين والمفكرين سوى الاستسلام والخضوع لهم، حتى أن مفكراً مثل الجاحظ (ت:٢٥٥هـ/٨٦٨م) قد أجبر على كتابة بعض الرسائل في مدح الجنس التركي وتفضيله على سائر الأمم والقبائل، فضلاً عن مصير بعض الخلفاء العباسيين سواء القتل أو الخلع أو سمل الأعين وأولهم المتوكل العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م) الذي قُتِل ومن بعده خلعوا المستعين (٢٥٠-٢٥٢هـ/٨٦٤-٨٦٦م) وقتلوا المعتز عام (٢٥٥هـ/٨٦٨م) وقاموا بتعذيب المهتدى وايذائه بشده حتى فارق الحياة ٢٥٦هـ/٨٦٩م[2].

إلا أن بداية مجيء الأتراك وانتشارهم في بلاد فارس وخراسان كانت عن طريق سكنهم في الصحراء الواسعة والسهوب التي تبدأ عند حدود الصين وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر، وظلت هجرات الترك إلى شاطئ جيحون لا ينقطع سبيلها صوب الجنوب الشرقي وذلك قبل الغزو العربي وبعده[3].

فقد بدأ النفوذ التركي في الأمور العسكرية منذ عهد السامانيين، حيث كان هؤلاء الأتراك عبارة عن الأفراد الصغ
الوسطى وتم بيعهم في البلاد الإسلامية، فيقوم الأمراء السامانيون بشرائهم

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٣ . مطبعة المدني –القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ص١٤٥؛ ذبيح الله صفا، المرجع السابق، ص٨٠

(٢) ذبيح الله، نفسه، ص ٨٠، ٨١

(٣) ارمنيوس فامبرى، المرجع السابق، ص١٢٧.

ويسندون إليهم الأعمال العسكرية، حيث جرت العادة بأن يقسم السامانيون الغلمان الأتراك إلى فرق مكونة من عدة أفراد ويسلمون كل فرقة إلى أحد الغلمان الأتراك[١].

وبصفة عامة وجد الغلمان الأتراك الذين كانوا في جهاز الأمراء السامانيين نفوذاً وقوة غيرعادية منذ منتصف العصر السامانى حيث وصل بعضهم إلى قيادة جيش خراسان، ومن هؤلاء الغلمان "ألبتكين" الذي وصل إلى رتبة قائد جند خراسان (سبهسالار) في عهد الأمير منصور بن نوح السامانى (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٦٧م)، فتمرد عليه وتوجه إلى غزنة مع مجموعة من غلمانه الخصوصيين وشكل هناك أول حكومة تركية شبه مستقلة[٢].

وبعد هذا النفوذ التمهيدي يحين عصر السيطرة السياسية والعسكرية للأتراك لاسيما بعد الضعف السياسي الذي أصاب البيت السامانى تدريجياً في الداخل والخارج، حيث بدأ الأتراك في إضعاف الحكومة السامانية بل وامتد الأمر إلى قتل أحد أمراء البيت السامانى وهو "أحمد بن إسماعيل بن أحمد"[٣].

ويذكر "بارتولد"[٤] أن سبب دخول الترك في خدمة السامانيين هو تعهدهم أن يدافعوا عن حدود ممتلكاتهم ضد الايلخايين مقابل المراعي التي أعطيت لهم، إلا أن الترك كانوا ينضمون أحياناً إلى السامانيين وأحياناً أخرى إلى الإيلخانيين، بمعنى أن المصلحة هي التي توجه أهدافهم.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح العنصر التركي هو صاحب النفوذ

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٧٧ ؛ ذبيح الله صفا: المرجع السابق، ص٨٢

(٢) حمد الله مستوفي قزويني ، تاريخ كزيده ، با اهتمام ادوارد جرانفيل ، ط. لندين ١٣٢٨هـ.ش ، ص ١٤٠ ؛ البيهقي : المصدر السابق ، ص ٩٨ ؛ عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص١٩٥ ؛ ذبيح الله صفا، نفسه، ص٨٣

(٣) الطبري ، المصدر السابق ، ج ١١، ص ٤٦ ؛ ابن الأثير ، نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٧ ؛ذبيح الله صفا، نفسه، ص٨٣.

(٤) تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، ط القاهرة ١٩٥٨م، ص١٠٤.

الأقوى سياسياً وعسكرياً، حيث نجحوا في تأسيس أول دولة شبه مستقلة عام ٣٥٥هـ/٩٦٦م في غزنة على يد الغلام التركي "ألبتكين" ثم جاء من بعده خلفائه سبكتكين والسلطان الذي كانت له أحداث ساهمت في تحول أحداث المشرق الإسلامي عامة وخراسان خاصة وهو محمود الغزنوي.

بداية عصره هي بداية الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية في خراسان، حيث شاع في عهده مصادرة أموال الأمراء والوزراء والأثرياء لدرجة أن محمود الغزنوي ومن بعده ابنه مسعود كانوا ينهبون أموال من يريدون بتهمة الكفر والزندقة والإلحاد – وهذا ما سيتم تفصيله لاحقاً- ومصادرة ثروات البلاد[١].

وباعتبار الأتراك مؤلفين من أكثر من عنصر، فقد كان هناك عنصر الأتراك الغز الذين تميزوا بالشدة والقسوة وحب الإغارة على أملاك الغير والبحث عن مصلحتهم أينما كانت[٢]، وقد دخلوا بلاط السلطان محمود الغزنوي في بداية القرن الخامس الهجرى ولاسيما أن كانت ولايات الغزنويين وغيرهم تضار اقتصادياً من غارات السلب التي يقوم بها الغز، ولكن هذه الغارات على اتساع مساحتها في بعض الأحيان ما كانت لتحدث أى تبديل سياسي، وذلك لأن البدو ينتقلون من مكان إلى أخر دون أن يتركوا حاميات عسكرية ولايعمرون المدن التي خربت.[٣]

وقد أورد الراوندى[٤] سبب مجيء الأتراك الغز في البداية إلى ماوراء النهر قبل خراسان حيث أنهم جاءوا إلى قرية "نور" بمدينة بخارى و"الصغد" بسمرقند فاستولوا على المراعي الموجودة في المدينتين، بفضل جيوشهم الكثيرة وجنودهم الوفيرة.

---

(١) ذبيح الله صفا، المرجع السابق، ص٨١

(٢) عنصر المعالي كيكاوس بن وشمگير بن زيار، قابوسنامه، ترجمة:محمد صادق نشأت- أمين بدوى، ط١- مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م، ص١٢٩

(٣) بارتولد، المرجع السابق، ص١٠٤

(٤) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص١٤٧

وهنا يلاحظ مؤرخو إيران الفرق الكبير بين الغز الذين دخلوا قبل ذلك إيران متفرقين رعاة لا نظام لهم وبين أحفاد سلجوق الذين كانت قواتهم متفوقة نظاماً وتشكيلاً[1].

وبمجيء الأتراك السلاجقة –الذين سنتحدث عن نشأة دولتهم في الفصل السادس- ازداد العنصر التركي سطوة ونفوذا حيث تكوين دولة مترامية الأطراف، إلا أنه يبقى سيطرة هذا العنصر فقط على النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية ؛ لأن التركيبة الاجتماعية للشعب في خراسان فارسية بجانب وجود الأتراك وبدا ذلك التأثير بشدة حتى على الألقاب التي اتخذها السلاجقة لأنفسهم.

ومن الملاحظ أن الأتراك السلاجقة استعملوا اللقب الإيراني القديم "شاهنشاه" وذلك على العملة التي سكوها باسمهم، وهو لقب لم يستعمله السامانيون ولا الغزنويون بصفة رسمية، فقد كانوا جميعاً يريدون أن يظلوا أمراء سنيين تابعين للخلافة العباسية يباعدون بين أنفسهم وبين شبهة الميل الى إحياء التقاليد والنظم الإيرانية قبل الإسلام.[2]

قصارى القول لقد أحدث الترك خلخلة في البناء الإثني للمجتمع فضلاً عن ذيوع أعرافهم البدائية التي كرست التخلف، إذ حلت النظم القبلية محل القوانين والتشريعات التي ترسخت إبان العصر السابق، كما أسهموا في ترسيخ الطرقية والدروشة بطابعها التواكلي الانسحابي الانحلالي على حساب النزعات العقلية- وهذا سيأتي تفصيلا فيما بعد- والفكرية[3]، فضلاً عن غياب الأمن الاجتماعي، والعدالة وإهمال العلم والزهد والورع، بجانب رواج سوق

---

(٥) بارتولد، المرجع السابق، ص١٠٤

(١) نفسه ، نفسه ، ص١٠٥

(٢) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ١٢ ، ص ٢٠ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية . بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، جـ ٩ ، ص ٨٢ ، ١٨٤ ؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى،(طور الإنهيار)، ط١ . دار سينا للنشر-القاهرة ١٩٩٢م،ج٣، ص٩٣

الفساد وسوء الأخلاق بالإضافة لانتشار التعصب والعنف والقسوة في المعتقدات[1].

العرب:

هم العنصر الأول الذي قام بفتح بلاد الفرس ونشر الإسلام في المدن الفارسية، والذي بدوره الفعال أصبح للحضارة الإسلامية شأن عظيم بين حضارات العالم كان مؤثراً في المجتمع الفارسي منذ فتحه لبلاد فارس.

فلم يكن انتشار الإسلام في إيران مجرد صراع بين الإسلام و الديانات الأخرى فحسب بل هو تنظيم سياسي معين؛ لأن الدخول في الإسلام كان يعطي حق المواطنة في الدولة الإسلامية ويتيح للمسلمين الفرس أن يشتركوا في النشاط السياسي ومن ثم يمثل نشاطاً اقتصادياً ؛ لأن العرب جلبوا معهم نظريتهم في الضرائب والملكية وسبل الإنتاج الزراعي وغيره من وجوه الإنتاج ثم هو في الوقت نفسه تطور اجتماعي يشمل تغيراً في نظام الأسرة وفي حياة المدنية وفي التركيب الطبقي[2].

منذ هجرة القبائل العربية بعد الفتح فقد سكنوا الأراضي الموجودة، وإن الأرض التي عمرها المسلمون لم تكن لأصحابها المعينين من السكان وإنما كانت في أكثرها أموال آل كسرى[3]، ويؤيد هذا الرأي آرثر كريستنسن[4] في حديثه عن وضعية الأرض وخراجها بعد الفتح الإسلامي.

وكانت من ضمن هذه الأراضي الواسعة التي حازها الأمراء وكبار الحكام العرب لأنفسهم، وأيضاً أرض من هاجر أصحابها عنها وفى ذلك

---

(٣) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٥٣ ، ٥٥ ؛ ذبيح الله صفا، المرجع السابق، ص٨٢

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٥ ؛ حسن أحمد محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحتين العربى والتركى، ط دار الفكر العربى ١٩٩٨م، ص٢٥

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٠٩ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، جـ١ ، ص ٢٠٤ ؛ شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (نشأتها – مقوماتها- تطورها اللغوى والأدبى)، ط دار الكتاب العربى – القاهرة ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م، ص١٩٢

(٣) إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، ط الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٦م، ص٤١٠

السياق يروي البلاذري هروب كثير من أهل خراسان وسجستان وكرمان فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها وأدوا العشر فيها واحتقروا القني في مواضع منها[1].

لكن تبدل البيئة على العرب لعب دوره، فصلتهم بالفرس وكثرة دخولهم في الإسلام، فضلاً عن تجمع الثروة لدى العرب أدى إلى تسرب الترف ورأوا في الأرض مصدر ثروة فمالوا إلى اقتناء الأراضي والضياع يستغلونها بتشغيل سكان البلاد المحليين في زرعها، وهكذا بدأ دور اقتصادي جديد هو دور الإقطاع بل دور الأرستقراطية العسكرية، وظهر بجلاء دور السادة الإقطاعيين الذين كانوا جلهم من الأمويين أو من القبائل الموالية في الربع الأول من القرن الثانى الهجرى[2].

وقد كان اقتناء العرب للأراضي في خراسان واشتغالهم باستثمارها أدى إلى دخول المجتمع في دور زراعي، ولاسيما أن قوى هذا الاتجاه بانتقال الحكم إلى العباسيين[3].

ولما آل حكم خراسان إلى العباسيين وقيام ثورتهم التي أطاحت بالحكم الأموي الجائر، أخذ العنصر العربي في الضعف نظرا لاعتماد العباسيين على سكان إيران الأصليين من الفرس وخصوصاً أهل خراسان الذين ساندوهم في الثورة.

وفى هذا السياق يبرر الدورى[4] هذا الضعف العربي بنكبة الأرستقراطية الأموية واشتراك الأعاجم في الحكم مما أضعف كبرياء العرب وقلل من شعورهم الأرستقراطي فأخذ بعضهم يشتغل المهن الحرة ومنها زيادة الاختلاط بالفرس، ولعل هذا الرأي جعل بعض المؤرخين ينظرون إلى الثورة العباسية أنها ثورة اجتماعية- اقتصادية مثل "برنارد لويس" الذي

---

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، صـ ٤٥؛ شكرى فيصل، المرجع السابق، ص١٩٢

(١) عبد العزيز الدورى، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٩

(٢) نفسه، المرجع السابق، ص١٩

(٣) دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٩

أعلن بطلان أن الثورة العباسية ثورة عنصرية أو قومية أي صراع بين العرب والفرس[١]، ويعضد هذا الرأي ابن خلدون[٢] بقوله أن العرب سريعو التأثر بالحضارة فإذا تحضروا انغمسوا في البذخ والترف، الذي حتماً يؤدى إلى مرحلة تكدس الثروة مما يؤدي إلى تنامي الظلم والجور يسبب في النهاية قيام ثورة ضد هذا الظلم.

وقد أورد الطبري[٣] إحصائية القبائل العربية التي دخلت خراسان تسعة آلاف من عبد القيس وتسعة ألاف من القبائل الحجازية وسبعة آلاف من بكر بن وائل، وعشرة آلاف من تميم وأربعة آلاف من عبد القيس وعشرة آلاف من القيس، وعشرة آلاف من الأزد وسبعة آلاف من عرب أهل الكوفة، ومن المناطق التي استقر بها العرب بلخ التي بها مجموعة من التميميين[٤].

أما بالنسبة للدور العربي في عهد السامانيين فلم يكن للعرب دور بارز في السياسة، إلا أنهم كانوا بمثابة جنود مرتزقة في الجيش لمعرفتهم ودرايتهم وخبرتهم الطويلة في ميدان القتال فضلا عن انصهارهم مع المجتمع الفارسي ولاسيما أنهم يتكلمون باللغة الفارسية بقدرما يتكلمون العربية[٥]، الأمر الذي ساعد على اندثار الشعوبية في العهد السامانى[٦].

لم يختلف الأمر كثيراً في العصرين الغزنوي والسلجوقي فقد كان دور العرب منحصراً في الدور العسكري إلا أنه يلاحظ أن مجموعة المقاتلين قد دخلت خراسان مع أسرها، ولكن نظام العطاء أو التسجيل في الديوان لم يكن يبيح تسجيل جميع أبنائهم ضمن قوائم هذا الديوان بل كان يقتصر عادة على

---

(٤) ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للإسلام، ط دار التراث القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٦٩

(٥)المقدمة، ط١ دار الفجر القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٢٧

(٦) تاريخ الرسل والملوك،ج٧، ص١٢٢

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص٣٠٣

(٢) اربرى، تراث فارس، ترجمة: أحمد الساداتى وآخرون، ط . دار إحياء الكتب العريب - القاهرة ١٩٥٩م، ص١٠٦

(٣) عبد الناصر إبراهيم، خراسان في عهد السامانيين (رسالة دكتوراه)، إشراف: عصام الفقي، ط القاهرة ١٩٩١م، ص٢١٩

ابـن واحـد، وهـذا يعنـي وجـود آخـرين دون عطـاء وهـذا جعـل المقـاتلين يبحثـون عـن مـورد آخـر للعـيش كالتجـارة واسـتغلال الأرض فاشـتغلوا بالزراعـة والرعـي فكسـبوا منهـا أمـوالاً كثيـرة، ويـذكر المؤرخـون أن العـرب الـذين سـكنوا فـي ضـواحي سـمرقند أصـبحوا مـن كبـار الأثريـاء لاشـتغالهم بتربيـة الجمـال وبالصناعات اليدوية[١].

ويكشـف العتبـى[٢] فـي تاريخـه عـن دور العـرب فـي الدولـة الغزنويـة، ومـدى اهتمـام السـلاطين بهـم كقـادة لجيوشـهم أو طلـب العـون والمسـاعدة فـي حـروبهم ضـد السـلاجقة، فقـد شـارك القائـد "محمـد إبـراهيم الطـائي" ضـمن قـوات عربيـة مـع السـلطان محمـود فـي حروبـه ضـد القراخـانين، كمـا سـاهم "أبـو الحسـن عبـد الجليل" بالمشورة مع السلطان مسعود في حربه ضد السلاجقة.

وكـان أبـو الحسـن عبـد الجليـل يطمـع فـي رياسـة الـديوان (ديـوان الرسـائل) بعـد وفـاة "أبـى نصـر بـن مشـكان"، كمـا كـان مـن نـدماء السـلطان مسـعود، وقـد قـاد الفرقـة العربيـة والكرديـة فـي حـروب كثيـرة للمحافظـة علـى أمـن الدولـة الغزنويـة، و كـان آخرهـا معركـة دانـدانقان التـي أبلـى فيهـا غلمـان العـرب أحسـن البلاء[٣].

وظـل وضـع العنصـرالعربي هكـذا فـي العصـر السـلجوقى الـذي شـهد أفـول العنصـر العربـى تمامـاً، ولـم تـذكر المصـادروالمراجع أى دور للعنصـرالعربي حتى على المستوى العسكري[٤].

ثالثا: طبقات المجتمع:

لقـد كـان المجتمـع الخراسـاني فـي هـذا العصـر مـن ثـلاث طبقـات رئيسـية

---

(٤) محمد حسن العمادى، خراسان في العصر الغزنوى، ص١٧٢

(٥) تاريخ اليميني، تحقيق: احسان ذنون الثامرى، ط دار بيروت٢٠٠٤م، ص٢٥٦ ؛ البيهقى، انفس المصدر، ص٦٥٤

(١) العتبي، المصدر السابق، صـ ٣٢٣؛ محمد حسن العمادى، المرجع السابق، ص١٧٢

(٢) إبـراهيم باسـتاني بـاريزى، يعقـوب بـن الليـث الصـفار، ترجمـة: محمـد الـريس، ط دار الرائـد العربى. د.ت، ص٨

تضم بداخلها عدة شرائح :

فالأولى هي الطبقة العليا أو الأرستقراطية التي تضم الأمراء الحكام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين وشريحة الفقهاء ورجال الدين والموالين للسلطة، أما الثانية فهى الطبقة الوسطى أو مايصطلح عليها "البورجوازية" فتضم موظفى الدواوين وكبار التجار وأوساطهم والصناع ورجال الحسبة والقضاء، فأما الثالثة هي الطبقة الدنيا أو عامة الشعب من أصحاب الحرف والزراع و الخدم والرقيق.

الطبقة العليا (الأرستقراطية):

تلك الطبقة التي ظلت تقريباً بلا تباين على مختلف العصور خاصة منذ عهد السامانيين، فظلت التركيبة الاجتماعية لها كما هي بل تطورت إلى الاتساع في النفوذ والسلطان.

لقد عاشت تلك الطبقة على الصعيد الاجتماعي حياة البذخ والترف وكان في أعلى درجاتها الأمراء والحكام الذين دانت لهم رقاب العليا وصبت الأموال التي تعد بالملايين في خزائنهم، وكانت مصادرها متعددة مثل ضرائب الأرض، وأيضاً ضرائب كثيرة على الصادرات والواردات من الرقيق والتجارة، وجرت العادة أن تتبع الإمارة كثير من الضياع تعود ثمارها جميعها إلى الأمير وخزائنه[1].

ويصف ابن حوقل[2] سكن هؤلاء الأرستقراطيين في الفنادق الفارهة وهم تجاراً كبار وأهل البضائع والأموال، وتركز أماكن هؤلاء في مدينة نيسابور حيث وصفهم بأنهم أيسر أهل خراسان، حيث كانت نيسابور بوابة إيران الشرقية، ولهذا توطدت منزلتها كمدينة تجارية كبيرة وبعد تدهور مكانة بغداد في القرن الخامس الهجري أصبحت نيسابور أكثر أهمية من الناحية الاقتصادية

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١١، صـ٣٠؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، ط٤ دار المعارف القاهرة ١٩٩٦م، ج٤، ص٤٩٨

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٢؛ مرتضى روندى: تاريخ اجتماعي إيران (جلد بنجم) حيات اقتصادي مردم إيران از آغازتا امروز، ط٣ تهران ١٣٧٢هـ. ش، ص٢٦٤

وسكانيا[1]، وكذلك وجد الأشراف الذين هم شريحة أخرى من الطبقة العليا بمدينة بلخ[2].

لقد كان للأرستقراطية السامانية دور هام في حراسة مصالح الخلافة العباسية في المشرق عموما وخراسان خاصة، بحكم امتدادهم الطبيعي للحكام الإقطاعيين، الذين تعرضوا بعد قيام حكومتهم لحرب المتمردين عليهم من النبلاء، وكانت عراقيل الحكام الإقطاعيين في هذا الوقت من الشدة بحيث إنها كانت تصيب معظم أعمال الحكومة المركزية بالشلل التام وقد حاول بعض الأمراء الأقوياء والأذكياء بشتى الطرق عن طريق الحرب أو الحيلة أن يمنعوا نفوذ وعراقيل الأشراف وأصحاب السلطة[3]، مثلما فعل الأمير أحمد بن إسماعيل الساماني (٢٩٥-٣٠١هـ/٩٠٧-٩١٣م) عندما علم بثراء عامله بارس الكبير على طبرستان ثراءً فاحشاً قبض عليه فهرب هذا العامل، لكن الأمير لم يغضب لهرب العامل إلى بغداد بقدر ما غضب لخروج أمواله من يده[4].

من خلال ما سبق يمكننا القول بأن هناك صراعاً بين شريحتين من الطبقة العليا، شريحة الأمراء الحاكمين والأخرى الإقطاعيين والنبلاء، خصوصاً بعد وصول قادة العسكر الترك إلى مناصب كبيرة هامة إدارياً وعسكرياً فأصبحت هناك رغبة من العسكر الأتراك في السيطرة على الأمير الحاكم ومن ثم السيطرة على مصادر الدخل والاستيلاء على الأراضي والإقطاعات، وبعدما كانت بين الطرفين مصالح مشتركة، فالأمراء الحاكمون يرغبون في تأمين أنفسهم من الحركات التمردية من قبل المعارضين سواء مذهبية أو حتى معارضين من أجل الظلم الاجتماعي الموجود آنذاك -التي سيأتي تفصيلاً فيما بعد- وأخذوا العسكر الترك لقمع المعارضين.

---

(٣) ابن حوقل ، سورة الأرض ، ص ٣٦٢ ؛ موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة: عبد الرحمن حميدة، ط دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص٥٥

(٤) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص٢٦٤

(٥) عدنان مزارعي، المرجع السابق، ص١٩٤

(٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٣ ؛ارمنيوس فامبرى، المرجع السابق، ص١١٢.

ويعضد هذا الرأي "دونالد ولبر"[1] قائلا بأن تحول الحكومة السامانية إلى النظام الإقطاعي تسبب في ظهور حكام أقوياء مما سبب صراعات أفضت في النهاية إلى إسقاط الدولة .

ومن ضمن الشرائح الهامة في طبقة الأرستقراطية أو الطبقة العليا والمكرسة للظلم شريحة الفقهاء والعلماء الموالين للسلطة،الذين طالما برروا مشروعية حكم الأمراء والسلاطين القائم على التسلط وقد نيط ببعضهم المناصب الهامة كالوزراء والقضاة والإفتاء فضلاً عن الكتابة في الدواوين؛ لذلك حازوا الإنعامات وجمعوا بين المكانة الروحية والمال والجاه، ووقفوا إلى جانب السلطة ضد العامة يرهبونهم باسم الدين، فتقلبوا في حياة البذج والترف فاقتنوا القصور والجواري والغلمان، كما أسهموا بدور كبير في إذكاء نيران الصراعات المذهبية وحاربوا العلماء والفلاسفة وتصدوا للفكر الحر والاجتهاد مروجين للاتجاه النصي الغيبي المبرر لشرعية النظم العسكرية بالحق أو الباطل[2].

وحسبنا ما فعله الغزنويون في عهد السلطان محمود الغزنوي ضد الشيعة والمعتزلة حيث استعان بقضاة المذهب الحنفي، لتكفيرهم وبالتالي إعدامهم، وأيضاً الغزالي مع السلاجقة وكل هذا على غرار ما فعله الخليفة المقتدر وصلبه للحلاج الصوفي الذي سيأتي فيما بعد .

وكذلك لم يختلف الأمر في عهد الغزنويين [illegible] الطبقة العليا بل ازداد الأمر سوءاً أو طغياناً، ولعل اميرا لم يحز من الاموال ما حازه محمود الغزنوى من غنائمه في الهند، فقد ظل ينازل الهنود مدة ٢٤ سنة وهو يمد حدوده، وغنم أثناء ذلك ما لا يعد ولا يحصى كما أتاحت له

---

(١) إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد النعيم حسنين، ط مكتبة مصر ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م، ص٥٣

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣١٠ ؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، (طور الانهيار)، ج٣، ص١٢٨

ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال[1].

وفى هذا الصدد أوردت كثير من المصادر فتوحات السلطان محمود الغزنوى للهند وكشفت النقاب عن الأسباب الحقيقية، فقد ذكر "ابن ظافر الأزدى"[2] (ت:٦١٣هـ/١٢١٦م) أن محموداً الغزنوى استطاع أن يستلب الأموال والذهب من معابد الأصنام الهندية حيث التماثيل المصنوعة من الياقوت الأحمر والفضة، وكذلك "الكرديزى"[3] (ت: ٤٤٣هـ/١٠٥١م) فسر غزوات محمود الغزنوى بأنه عندما علم بمكانة معبد الهنادكة العظيمة مثل مكة عند المسلمين فتملكته الرغبة أن يستولي على هذه الولاية وبها "معبد السومنات" المقدس، وأيضا أورد "عماد الدين الأصفهانى"[4] (ت: ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) إهداء محمود الغزنوى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٥٠هـ/١٠٣٠-١٠٥٨م) بصنماً ذهبيا وزنه ٤٠٠ رطل بعد فتحه لمدينة الملتان*.

وقد نشر "جوستاف لوبون"[5] رسالة قد أرسلها محمود الغزنوى إلى أحد قواده واصفاً معابد غنية بالأصنام الذهبية المرصعة بالياقوت الأحمر والتماثيل الذهبية والفضية وتقديرها بملايين الدنانير، لكن ليس فقط السلطان محمود بل وخليفته ابنه

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٣٤ ؛ شوقى ضيف: المرجع السابق، ص٥٠٠

(٢) أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: على عمر، ط مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة ٢٠٠١م، ص٣٢٨

(٣) زين الأخبار، ترجمة: عفاف زيدان، ط القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٩٠

(٤) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق: عمر عبد السلام تدمر، ط١ المكتبة العصيرية – بيروت ٢٠٠٢م، ص٢٧٦

(*) الملتان: مدينة من مدن اقليم الهند وتسمى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر اصقاعها و تعظمه، ويتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمالٍ عظيم، وسميت الملتان باسم الصنم والصنم اسمه ملتان . (ابن حوقل : صورة الأرض، ط . منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، د.ت،ص٢٧٧-٢٧٨ ؛ عبد الحميد البطريق ومحمدعطا : باكستان في ماضيها وحاضرها، ط دار المعارف مصر د.ت، ص١١).

(١) حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، ط٣ دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٦م، ص١٨٧

مسعود الغزنوى (٤٢١-٤٣١هـ/١٠٣٠-١٠٤٠م) الذي غزا الغور* وهو إقليم مشهور بالرقيق حيث إن أكثر رقيق الغور يقع على هرات وسجستان؛ لأن أهل تلك النواحي المجاورين لهم يسرقون أبناءهم ونساءهم ويستخرجونهم إلى بلادهم(١).

ولم يكتفِ سلاطين الغزنويين بجلب الأموال بالطرق السابقة وإنما عينوا عمالاً وجباةً للضرائب على خراسان، وكان هدفهم جلب الأموال وإرسال الهدايا إليهم في المناسبات والأعياد، فأخذ هؤلاء العمال يظلمون الناس ويضربونهم لكى يحصلوا على الأموال المكلفين بدفعها نهاية كل عام، ففي فترة حكم السلطان مسعود تعرض سكان خراسان لظلم العميد "سورى بن المعز" الذي أطلق يده في هذا الإقليم ولجأ إلى كافة أساليب القهر والهوان في سبيل الاستحواذ على الأموال الكثيرة والهدايا الثمينة لإرسالها إلى غزنة في إحدى المناسبات والأعياد(٢).

بالإضافة إلى أسلوب آخر اتبعه السلطان محمود الغزنوى وهو مصادرة ونهب أموال الوزراء وأملاك كبار الأشراف وحكام المناطق المستولى عليها ويضمها إلى أملاكه الخاصة، ولم تكن أراضيه في مكان واحد أو قطعة واحدة وإنما كانت متشعبة في كافة مناطق الدولة وكان يديرها ديوان مخصوص في كل ناصية، فمثلاً يذكر البيهقى (ت:٤٧٠هـ/١٠٧٧م) أن السلطان محموداً قد سلم الأملاك السلطانية الخاصة في ولاية غزنة لأحد خاصته لكي يباشرها، وكان لقب ذلك النائب صاحب ديوان غزنة(٣).

---

* الغور: أحد الشعوب الإفغانية التي سكنت هضبة البامير قبل الإسلام الذي دخلها عن طريق الدعاء، كذلك ينسبون إلى غورستان الممتدة من هرات إلى تخوم غزنة وظلت هذه المنطقة غير مفتوحة طوال العصور الإسلامية حتى قدوم الغزنويين. (أنظر: الجوزجاني، طبقات ناصري، صـ٣٣٦)

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، صـ ٢٨١؛ الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط مكتبة الثقافة القاهرة، د.ت، ج١، ص٤٦٨

(٣) محمد العمادي، المرجع السابق، ص١٦٢

(١) مرتضى راوندى، المرجع السابق، جلد بنجم، ص١١٦

وعن شدة حب واهتمام السلطان محمود الغزنوى بالمال فيذكر ميرخواند[1] (ت: ٩٠٣هـ/٤٩٧م) أنه عند مرضه أمر قبل وفاته بأن يحضروا له ما جمع من أموال وجواهر والذهب أيام سلطنته، ونظر إليها وبكى أنه سيغادر هذه الكنوز التي جمعها، حيث كان حريصاً على الاستيلاء على أموال الأغنياء ولاسيما أنه علم مرة أن بنيسابور رجلاً ثرياً فاستدعى هذا الشخص إلى غزنة وقاله له سمعنا أنك قرمطي وبالفعل أخذ أمواله بتلك التهمة .

بالنظر إلى المسائل المذكورة سابقا فإنه يجب اعتبار الاستعمار الاقتصادي والمالي والإنساني أحد سمات النظام الغزنوي، والجدير بالذكر أنه من مجموع الوثائق التاريخية الموجودة تبين أن الثروة والدخل الناتج عن الحرب والاستغلال الاقتصادي كان له في الغالب الجانب الشخصي الفردي وملكية السلطان أكثر منه للمال العام وبيت المال، حيث إن الجزء الأعظم من هذه الأموال يجمع في الخزائن الملكية[2].

وعلى نفس النهج سارت الطبقة الأرستقراطية في عهد سلاطين السلاجقة والتي كانت سمتهم الأساسية الانغماس في الترف، إذ كانوا يعيشون عيشة تتسم بالبذخ والأبهة ؛ لأن اتساع الدولة يسر لهم سبل الحياة المترفة الناعمة، وقد شغف السلاجقة بسكنى القصور الفاخرة بعد قيام دولتهم واستقرارهم وتركهم حياة البداوة والتنقل وتفننوا في تجميل قصورهم، فضلاً عن مجالس الطرب والغناء والشراب التي لم تقتصر على السلاطين بل قلدهم فيها الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة، وقد أدى انغماس السلاطين وكبار رجال الدولة في ألوان الحياة المترفة إلى إصابتهم بالأمراض المهلكة التي قضت على كثير منهم في سن الشباب، نتيجة الإنكباب على الملذات

---

(٢) روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة: احمد عبد القادر الشاذلي، ط١ القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص١٥٧،١٥٨

(٣) الكرديزي، زين الأخبار، صـ٢٩٠؛ عدنان مزارعى، المرجع السابق، ص٢٠٦

والشهوات وعدم التوسط في ممارسة ألوان الحياة المختلفة[1].

الطبقة الوسطى:

من المعلوم أن هذه الطبقة قد تعاظم دورها منذ منتصف القرن الثاني الهجرى على سيادة الإقطاعية خصوصاً في العصر العباسي الأول، الأمر الذي أدى إلى صحوة بورجوازية وتعتبر هي الصحوة الأولى، و التي نجحت في تحقيق بعض المكاسب الكبيرة على مختلف الأصعدة سياسياً واجتماعياَ وثقافياَ، تمثل ذروته في عصر الخليفة المأمون، أما الآن علينا البحث عن مصير تلك الطبقة وتبيان شرائحها ورصد دورها التاريخي وتفسيره خلال فترة محل الدراسة، وهى عصر سيادة الإقطاعية العسكرية التركية.

ويمكن تقسيم تلك الطبقة إلى عدة شرائح على النحو التالي:

١- كبار التجار الذين يشكلون الشريحة الأساسية نظرا لقيامهم بدور في حركة التجارة العالمية التي انتعشت في بعض الأقاليم.

٢- المشتغلين بشئون المال من الصيارفة والجهابذة والوسطاء والذين كان نشاطهم يخدم الشريحة السابقة، وبعض هؤلاء كانوا من أهل الذمة.

٣- رؤساء الحرف الذين ظلوا يمارسون نشاطا في بعض القطاعات المهنية.

٤- العلماء غير الموالين للسلطة والمدرسين في المدارس التي أقامتها الدولة لترويج مذهبها الرسمي.

٥- صغار الملاك في الريف ممن ظلوا يحتفظون بأنصبة محدودة من الأرض لم تدخل في إطار الإقطاعات[2].

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٤٧٧ ؛ عبد النعيم حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، ط١ دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢م، ص ١٧٨-١٧٩

(٢) ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، جـ ٢ ، ص ٩٩ ؛ محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج٣، ص١٣٣

ويضاف إليهم شريحة موظفي الدواوين والكتاب، وأيضا يدخل معهم شريحة القضاة[1].

ولنبدأ بشريحة كبار التجار حيث لم يختلف وضعهم في العهود الثلاثة السامانية والغزنوية والسلجوقية، لقد كان كبار التجار في وضع جيد للغاية نظراً لاستمرار التجارة بين الشرق والغرب، ولعل هذا يفسر تواجد تجار الأقاليم المشرقية في بلاد آسيا الغربية، حيث كانوا ينسبون إلى مدنهم، فيقال التاجر الهندي والطوسي والخراساني والخوارزمي والسمرقندي[2].

وقد أورد ابن حوقل[3] في هذا الصدد أهم معابر التجارة حيث عد مدينة (آمُل)* التي تقع على شاطئ نهر جيحون وبها مجمع طرق خراسان إلى ما وراء النهر وهى أعظم معابر خراسان، وكذلك أيضا مدينة (زم)* بها معبراً من ما وراء النهر إلى خراسان مما ساعد على تفعيل الدور التجاري في تلك المنطقة سواء بري أو بحري الأمر الذي كان له أثر بعيد على الأحوال السياسية في خراسان والمشرق الإسلامي عامة.

وكان معظم هؤلاء التجار يشتغلون في تجارة الرقيق التي ازدهرت خلال هذا العصر، حيث أصبحت من أهم فروع التجارة في إيران من بيع وشراء العبيد التي يتم استيرادهم من دول شرق أوربا والصحراء التركية والهندية والساحل الغربي لإفريقيا، ويتضح من المثال التالي مدى رواج النخاسة، فكما يقول الإصطخري[4] (ت:٣٢١هـ/٩٣٣م) قام تاجر فارسي من أهالي ساحل الخليج الفارسي في رحلة

---

(٣) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص٥٠٢

(١) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ج٣، ص١٣٦

(٢) صورة الأرض، ص٣٧٦ ؛ الإصطخرى: المصدر السابق، ص١٥٧

* آمل: بلده في الركن الجنوبي الغربي للسهل الشرقي لمازندران على مسيرة أثني عشر ميلاً جنوبي بحر قزوين، وهي قصبة طبرستان يسكنها الكثير من التجار والعلماء وهي مدينة كبيرة أكبر قزوين وهي مسقط رأس المؤرخ الكبير الطبري، وقد خربت على يد مسعود الغزنوي عام ٤٢٦هـ/١٠٣٥م. (أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، صـ٨٦؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، صـ٣٧٠)

* زم: هي بليده على طريق جيحون من ترمذ وآمل نسب إليها نفرن من أهل العلم ومنهم يحيي بن يوسف ابن أبي كريمة الزمي. (أنظر: ياقوت الحموي، ج٣، صـ١٥٠)

(٣) المسالك والممالك، صـ٢٢٠

بحرية صيفية عام ٣٢٥هـ باصطحاب اثني عشر ألف عبد أسود من بقية الأمتعة والبضائع التي كان يحملها على أربعمائة مركب، وذكر أيضا النظامي العروضي السمرقندي أنه قد وجد حي النخاسين في مدينة بلخ في القرن الخامس الهجري[١].

أما عن شريحة المشتغلين بأمور المال من الصيارفة والجهابذة وسطاء التجارة، فقد حظوا بمكانة متميزة لحاجة كبار التجار وأصحاب الحرف إليهم، حيث كانوا يقرضون التجار بالربا، وبالمثل أقرضوا الحكام في أوقات الأزمات ويتحفونهم بالهدايا والتحف[٢]، و في هذا الصدد ذكر آدم ميتز[٣] أن أن أحد الوزراء في عهد الأمير نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) قد باع ضياعاً سلطانية لأحد التجار في عام ٣٢٣هـ بخراسان ليفي بسداد ما كان قد استلمه من مالهم، فيتضح من هذا النص مدى قوة نفوذ شريحتي كبار التجار والصيارفة ووسطاء التجارة.

إلا أن مكانتهم المتفوقة لم تكن دائمة، إذ تعرضوا للبطش والإيذاء والاضطهاد في أحيان كثيرة، بحكم أن معظمهم كانوا ذميين[٤].

وبالمثل تعرض أصحاب الحرف للمحن في ظل النظم التركية العسكرية لاسيما عصري الغزنويين والسلاجقة للظلم والجور، تلك النظم التي لم تتورع عن تسخريهم في مشروعاتها الخاصة الأمر الذي حدا بغالبيتهم إلى الهجرة وانخراط البعض الآخر في الطرق الصوفية والمذهبية[٥].

أما عن شريحة العلماء والفقهاء والأدباء غير الموالين للدولة، فقد كانوا في منزلة أقل من نظرائهم الذين يعملون في الدواوين- ومن اشتغل منهم بالتدريس بالمدراس النظامية عهد السلاجقة- كانوا يتقاضون رواتب لا بأس بها بلغت اثنى عشر ديناراً شهرياً فضلاً عن الجرايات والهدايا والإنعامات

---

(٤) مرتضى راوندى، المرجع السابق، جلد بنجم، ص٩١

(١) آي. آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادى عبلة، ط دار قبة دمشق ١٩٨٥م، ص٤٠٧

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص١٩٦

(٣) آشتور، المرجع السابق، ص٤٠٧

(٤) آشتور ، المرجع السابق ، ص٣٧٨

التي كانت تمنح لمؤدبي أبناء أفراد الطبقة العليا[١].

وفيما يتعلق بموظفي الدواوين، فقد كان كبار الموظفين يعيشون معيشة مترفة سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين، ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين، فالعبدوني الشاعر ينشد:

أكتاب ديوان الرسائل مالكم تجملتم بل متم بالتجمل[٢]

وجدت شريحة القضاة أيضا في الطبقة الوسطى (البورجوازية) لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم المستفيدون من الطبقة العليا أو السلطة السياسية[٣].

وبعد هذا العرض لشرائح طبقة البورجوازية يتضح لنا مدى ارتباط مصالح هذه الطبقة مع السلطة أو الطبقة العليا، ولم نلاحظ ثمة تبايناً في أي من العهود سواء عهد السامانيين أو عهد الغزنويين أو عهد السلاجقة، ولاسيما شريحة كبار التجار والصيارفة والجهابذة الذين أقرضوا الوزراء والسلاطين مقابل اطلاق يد هؤلاء في حرية الاتجار وحركة البيع والشراء والتعيين في المناصب الإدارية العامة والوظائف العليا، الأمر الذي أدى إلى تخلي تلك الطبقة عن دورها التاريخي المنوط بها وهو مساندة طبقة العوام في مواجهة ظلم السلطة وجورها، لكن الذي حدث هو اتفاق مصالح البورجوازية مع السلطة وهي مصالح سياسية اقتصادية في المقام الأول، على عكس ما أنجزه تلك الطبقة في العصر السابق قبل وصول العسكر الأتراك إلى سدة الحكم حيث الإصلاحات على جميع المستويات سواء اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية وحتى الثقافية وحتى لو كانت إصلاحات جزئية قام بها الخلفاء العباسيون، مما جعل هناك وعياً طبقياً أسفر عن قيام المعارضين

---

(٥) محمود إسماعيل، المرجع السابق،ج٣، ص١٣٧

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، صـ٢٨٠؛ شوقي ضيف، المرجع السابق، ص٥٠٢

(٢) شوقي ضيف، نفسه، ص٥٠٢

والمضطهدين بثورات تطالب بالإصلاح تأسيساً على وقوف البورجوازية بل وقيادة هذه الثورات مثلما حدث مع حركات الشيعة والخوارج والمعتزلة إلى أن جاء عصر نفوذ البدو الأتراك وبدأت البورجوازية تتخلى عن هذا الدور بحثاً عن الثراء والوصول إلى المناصب الهامة في الحكم مستغلين طبيعة الأتراك ونهمهم للمال، أي أنه تم اقتسام الوليمة، الأمر الذي أفضى في النهاية إلى اتساع الفجوة بين البورجوازية والعوام الذين لم يستطيعوا مواجهة قمع الخلافة والدويلات الحارسة لمصالحها في المشرق خصوصاً خراسان، مما أدى إلى انتشار الحركات المتطرفة متخذة مذهب من المذاهب كأيديولوجية صورية للهجوم على الخلافة، مثل الذين قاموا بحركات متخذين المذهب الشيعي الإسماعيلي كستار خارجي يخفى تطرفهم، وانعكس ذلك فيما بعد على الصراع المذهبي الذي سيتم الحديث عنه تفصيلاً في الفصول القادمة فيما بعد.

طبقة العوام:

تأتي بعد ذلك في نهاية الهرم الاجتماعي، الطبقة العامة من الرعية، التي وصفت في كثير من الأحيان بالسوقة والغوغاء واللصوص، والأراذل، والذين لم يكتب تاريخهم الحقيقي فيما يسمى بالمسكوت عنه بالرغم من نضالهم ضد السلطة العسكرية ومواجهة الظلم والجور، وقد نسجت حولهم حالة من التآمر المعرفي لصالح السلاطين والأمراء، إلا أنه بالرغم من ذلك فهناك بعض من المؤرخين والباحثين المنصفين كشفوا النقاب عن دور طبقة العوام في حركة التاريخ وتأثيرهم الكبير على الحياة الاجتماعية في المشرق الإسلامي.

وتنقسم تلك الطبقة إلى عدة شرائح منها الحرفيون والصناع وأصحاب التجارات الصغيرة والذين يخدمون في قصور السلاطين والأمراء، وشريحة أخرى تمثل الفلاحين والمزارعين الصغار وكانوا أشبه بالأقنان نظراً

لمعاناتهم أشد المعاناة وهذا ما سيأتي تفصيلا[١].

لكن غلبة النشاط الزراعي الرعوي على الأنشطة الأخرى في خراسان خاصة والمشرق الإسلامي عامة ستجعلنا نركز حديثنا عن شريحة المزارعين والفلاحين الأكثر تضرراً من عسف الطبقة العليا والاستبداد القائم آنذاك من شريحة العسكر الأتراك.

ففي العصر السامانى كانت الطبقة الاجتماعية السفلى بما تضم من فلاحين وأهل المدن يعيشون في ظروف صعبة بسبب الوضع الظالم من الطبقة العليا، حيث أدت الحروب والصراعات الدائمة وفرض الضرائب إلى فقر وسخط العامة من الشعب[٢]، ويُذكَر أن الأمير إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م) قد تمكن من القضاء على عصابات اللصوص- من وجهة نظره- التي كانت تتألف من الفلاحين والمتذمرين بالإضافة أنه عمل على استرضاء النبلاء دون أن يعتمد عليهم[٣].

وبنظرة أكثر تفصيلاً للوضع الاقتصادي الزراعي حيث قلة سقوط الأمطار والثلوج أدى إلى نقص احتياطي الماء في القنوات والآبار واندثرت النظم القديمة لشبكات الري فبالتالي تدهورت أحوال المزارعين[٤]، وعلى عكس ما قاله الدوري[٥] بأن السامانيين يهتمون بحماية الزراع والفلاحين من إرهاق النبلاء الإقطاعيين، ليضمنوا السلام في البلاد وليوطدوا الحكم.

إلا أننا نرى أنه من الممكن اعتبار هذا الرأي هو في بداية حكم السامانيين لبلاد ما وراء النهر بالفعل ليكوّنوا لهم قاعدة شعبية ويوطدوا أركان حكمهم، لكن غلبة النظام الإقطاعي هي السائدة فيما بعد ولاسيما بعد

---

(١) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص٥٠٤

(١) عدنان مزارعى، المرجع السابق، ص١٩٥

(٢) محمد جمال الدين سرور، انقسام الدول الإسلامية إلى دول مستقلة بالشرق وأثره في تطور الحياة الثقافية والسياسية، ط دار الفكر العربي،القاهرة ١٩٦١م، ص١٣

(٣) مرتضى راوندى، المرجع السابق، ص٩٣

(٤) دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٢٤

وصـول الغلمـان الأتـراك إلـى المناصـب الإداريـة العليـا وقيـادة الجـيش فـي خراسان.

حيـث إنـه فـي آخـر الحكـم السـاماني واجـه الأمـراء السـامانيون الخلافـات الداخليـة واسـتقلالية الإقطـاعيين وعـدم المركزيـة النسـبية وزيـادة المنظومـة الإداريـة يومـاً بعـد يـوم وبالتـالي زيـادة الرواتـب والأجـور، واكتسـاب القـادة الأتـراك سـلطة ونفـوذ أكبـر وكـانوا يطلبـون مـن الحكومـة السـامانية رواتـب وحـوافز أعلـى، ولكـي تواجـه الحكومـة هـذه المشـكلات رفعـت الضـرائب، ويصـور "آي بـرتلس" وضـع المـزارعين العـام منـذ القـرن الرابـع الهجـري فصـاعداً كالتـالي، أنـه بـالرغم مـن وجـود جمـوع غفيـرة مـن العبيـد الأتـراك الرحـل الـذين جـاءوا مـن صـحاري آسـيا الوسـطى وكـذلك العبيـد الـذين وصـلوا للقيـادة والحكـم نتيجـة عمليـات الزحـف العسـكري إلـى الـدول المجـاورة (الهنـد)، فـإن عمـل العبيـد فـي تلـك الفتـرة لـم يكـن لـه دور أساسـي فـي الاقتصـاد الزراعـي، حيـث كـان المزارعـون هـم الشـريحة الرئيسـية التـي يـتم الاسـتفادة منهـا، لاسـيما أن نظـام الخـراج قـد سـقط علـى كاهـل الشـعب كحمـل ثقيـل، وطيلـة الفتـرة مـن القـرن الثالـث الهجـري إلـى الخـامس الهجـري كـان القرويـون قـد فقـدوا أراضـيهم و خضـعوا لأقسـام الـرق المختلفـة، وقيـام المـزارعين بتسـليم صـك التعهـد لجـامع الخـراج وتسـليم أرضـهم فـي حمايـة الأقويـاء فيمـا يعـرف بنظـام الإلجـاء، وأخيـراً فقـدوا حـق ملكيـة الأرض وتحولـوا إلـى مسـاهمين يمتلكـون فقـط البـذور والمواشـي وأدوات الزراعـة وأحيانـا قـوة عاملـة اسـتثناءً، كـل هـذا كـان بمثابـة العوامـل التـي تسببت في ملكية الإقطاعيين لوسائل الإنتاج وتبعية المزارع للملاك.[1]

وفى نفس هذا السياق يرى "آ.يو. ياكوبوفسكي" ضمن بحث الوضع الاجتماعي لخراسان في القرن الخامس الهجري، أن إيجار أسهم المزارعين والخراج أهم وسيلة لجمع حصيلة إضافية من يد القرويين لتذهب إلى الأراضي السلطانية وأراضي كبار الملاك، وكان يتعين على المزارعين أن يشاركوا في إنشاء القنوات والطرق وغير

(١) مرتضى راوندي، المرجع السابق، جلد بنجم، ص٨٤

ذلك، علاوة على دفع أنواع الضرائب والرسوم المجحفة، ويسمى هذا النوع من السخرة باسم "الحشر"، وقد أشارت عديد من المصادر في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين بأن الفلاحين في نواحي خراسان كانوا يحملون السلاح معهم[١]، فيقول مؤلف تاريخ سيستان: "والأهالي رجال محاربون ومعتادون على ثورة السلاح فهي حرفة الكبير والصغير وهم يتعلمون الحرب والقتال"[٢].

وبمجيء الغزنويين إلى خراسان ازداد الوضع الاجتماعي سوءاً وأصبح أكثر قسوةً على الطبقة العامة، ولاسيما أن نتج عن حروب الغزنويين الطويلة مع الدويلات الأخرى، إهمال الزراعة وترك الأرض بوراً على فترات متقطعة من السنة نتيجة هرب السكان إلى مناطق آمنة وخالية من المصادمات المسلحة بين الجيش الغزنوي وقوات السلاجقة، فضلاً عن الضرائب والرسوم الثقيلة التي كانت تفرضها الحكومة الغزنوية بالقوة وغارات الجنود وسلبهم ونهبهم وتوقفهم المستمر وإضافة لذلك عسف جباة الضرائب الذي جعلهم يفرون تاركين الأرض الزراعية[٣].

ويحدثنا العتبي[٤] عن القحط الذي وقع بنيسابور عام ٤٠١هـ/١٠١٠م خصوصاً وفى سائر بلاد خراسان عموماً، الذي تسبب في هلاك ما يقرب من مائة ألف مواطن لدرجة أن عجز غسلة الأموات عنهم، وسار الناس في الشوارع ينادون الخبز واشتد الجوع بالناس حتى أن بعضهم يختلس بعضاً من شوارع الطرق إلى الخرابات.

وانعكست تلك الاضطرابات ونتج عن ذلك الفساد أن ساءت الحالة المعيشية في معظم المدن الخراسانية، فارتفعت أسعار السلع والمواد الغذائية

---

(٢) نفسه، نفسه، ص٨٤،٥٨

(٣)مؤلف مجهول ، ص٣٤٥

(١) محمد حسن العمادى، المرجع السابق، ص١٦٠ ؛ بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ط١ . الكويت ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ص٨١ ؛ مرتضى راوندى، المرجع السابق، ص٨٥

(٢) تاريخ اليمينى، ص٣٢٠، ٣٢٦

إلى حد أن وصل ثمن الخبز من ثلاثة دراهم إلى ثلاثة عشر درهماً، أما الشعير فلم يكن موجوداً إلا نادراً ما يراه أحد[1].

ويذكر ابن الأثير[2] أيضاً في هذا الصدد أنه لما اشتد أمر الأتراك و فسادهم بخراسان، تجمع كثير من العيارين والشطار من أبيورد وطوس واجتمع معهم خلق كثير ونهبوا نيسابور، فأرسل مسعود الغزنوي أمير كرمان* بثلاثمائة فارس فقاتلهم وأسر أولادهم وأهلهم فأودعهم في السجن وكان ذلك في عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م.

أما عن حالة الفلاحين والمزارعين في العصر السلجوقي، فلم يختلف كثيراً عن مثيلتها في العصر الغزنوي إن لم تكن فاقت الحدود، ولاسيما أن الأتراك بطبيعتهم البدوية الرعوية كان نشاطهم الزراعي هو الأول أو بالأحرى كان اقتصادهم زراعياً رعوياً قائماً على فلاحة الأرض، وبما أن النظام الإقطاعي أصبح هو السائد والزى كرسه السلاطين والأمراء الأتراك، فقد تحول الإقطاع من الإشراف إلى إقطاع عسكري، أي تقطع الأراضي إلى العسكر لضمان ولائهم للحكام ولقمع معارضي السلطة.

كما اختفت الملكيات الحرة للمزارعين الصغار حيث أن معظم الملكيات الخراجية والعشرية ما لبثت أن انطوت في حيازة القادة العسكريين الذين اغتصبوها قسراً، وما تبقى من ملكيات ضئيلة في بعض الأقاليم أرهقت بالمغارم من جراء النظام الجبائي القائم على التضمين[3].

وبالنظر إلى الشريحة الأخرى من طبقة العوام وتمثل الحرفيين والمهنيين لم يختلف حالهم كثيراً إلا أنهم أقل بؤساً نوعاً ما بسبب احتياج الدولة إليهم في

---

(٣) البيهقى، المصدر السابق، ص٦٧٤،٦٧١- ٦٧٥ ؛ بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع حتى ظهور السلاجقة، ط١ . القاهرة ١٩٨٩، ص٢٥٩

(٤) الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢١١

* كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقري ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. (أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، صـ٤٥٤، ٤٥٦)

(١) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى، ج٣، ص٥٤

كثير من المشروعات العسكرية التوسعية والعمرانية الدينية[١].

إلا أن أحد المؤرخين[٢] رصد واقع المعاناة لشريحة الحرفيين والمهنيين في المدن حيث إنهم في قبضة الإقطاعيين وشركات التجارة، بحيث إن عليهم دفع الرسوم والضرائب الكثيرة، وتحدثت المصادر التاريخية عن الضرائب المجحفة التي كانت تؤخذ عنه من الحرفيين والمهنيين في أي مدينة، وفى هذا العصر وجدت اتحادات نقابية في إيران أيضا مثل سائر دول المشرق الأدنى، وكانت هذه النقابات في الغالب تحت نفوذ شديد وشعبية كبيرة بين الحرفيين حيث إنهم يعارضون سياسة كبار الملاك والإقطاعيين تحت عباءة الدين، لاسيما أن ظهرت فرقة ثورية تسمى "الآخية الفتيان" تجيز قتل الظلمة، وقد كانوا يهتمون بشدة بمساعدة بعضهم البعض وبالتعاون بينهم .

إلا أننا نرى أن تسمية اتحادات نقابية عليها تحفظات نظراً لعدم نشأة هذه التسمية في هذا العصر، من الممكن أن نطلق عليها ضمناً فقط اسم رابطة الحرفيين ولكن تسمية الاتحادات النقابية لم ترد في المصادر الأصلية للتاريخ الإسلامي.

أما بالنسبة للأحوال الاقتصادية للحرفيين فقد واجهوا أزمة كبيرة نظراً لفساد وكساد الزراعة، مما تسبب في تراجع قوة شراء المزارعين وأيضاً رواج المسكوكات قليلة القيمة[٣].

وقد ترتب على هذا الوضع سوء في المعيشة حيث كانت الغالبية العظمى من الشعب تعيش في المنازل المبنية بالطين مع ضيق في الأزمة، ولم يكن الأهالي يلتفتون إلى المسائل الصحية، وكانت زوايا وأركان الأزقة والمعابر الضيقة مكدسة بأنواع القمامة؛ مما تسبب في ظهور الوباء وأنواع الطاعون وسائر الأمراض المعدية[٤]، أي أن حياة العامة في العصر السلجوقي بلغت

---

(٢) نفسه، نفسه، نفس الجزء، ص١٤٨

(٣) مرتضى راوندى، نفسه، ص٩٢

(١) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص٩٣

(٢) نفسه، نفسه، ص٩٣

التدهور ذروته، الأمر الذي حفزهم على الثورة لكن غلبة واستبداد النزعة العسكرية وقفت حائلاً دون نجاح ثورة العوام[1].

وبعد هذا الرصد المفصل- إلى حد ما- لطبقات وشرائح المجتمع في عصور السامانيين والغزنويين والسلاجقة، نجد وضع طبقة العوام هو الأسوأ حالاً، بالرغم ما قيل عن اعتدال الوضع الاجتماعي نسبياً في بداية حكم السامانيين إلا أنه كما ذكرنا لتوطيد حكمهم وعمل قاعدة شعبية تحديداً في بلاد ما وراء النهر قبل انتقال حكمهم إلى خراسان، مروراً بمجيء الغزنويين إلى حكم خراسان حيث ترسخت وضعية الفساد والظلم الاجتماعي و قمة الاضطهاد من العسكر الأتراك واستبداد محمود الغزنوي وابنه مسعود، ومعاناة الفلاحين والمزارعين من المصادرة والعسف والإهانة، وصولاً إلى عهد السلاجقة وتكريس نظام الإقطاع العسكري واستمرار مسلسل اضطهاد المزارعين والفلاحين، بالإضافة إلى شريحة الحرفيين والمهنيين بالمدن الذين لاقوا الأمرين من مكوس وفرض ضريبة مضاعفة على صناعتهم الأمر الذي يثبت أنه منذ أواخر القرن الرابع الهجري فصاعداً تخلت الطبقة البورجوازية عن العوام وتكرس الإقطاع وعمت الفوضى في الإدارة والحكم، مما أثر على الوضع السياسي وأيضاً الصراعات المذهبية كما سيتضح فيما بعد.

رابعا : الإقطاع وقوى الإنتاج :

وبما أننا رصدنا في النقاط السابقة معالم الصراعات الاجتماعية والبنية الطبقية للمجتمع، فإننا الآن ننتقل إلى الحديث عن مرحلة الإقطاع وقوى الإنتاج في خراسان ؛ لأنه لا يمكن بأي حال رصد معالم أي مجتمع بمنأى عن النشاط الاقتصادي ونظامه السائد آنذاك؛ لأنه بلا شك سيعكس المظهر الخارجي للصراعات الاجتماعية، أي البنية الفوقية للمجتمع ؛ لذلك لابد أن نشير إلى البنية التحتية للمجتمع من مراحل الإقطاع وقوى الإنتاج والعمل الموجود في خراسان.

---

(٣) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص١٤٨

بداية من المعروف عن الحالة الاجتماعية في العصر العباسي الثاني – كما ذكرنا في بادئ الأمر – أنها أكثر اضمحلالاً بسبب توغل العنصر التركي في قلب الخلافة منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) عندما أتى بهم كعسكر في الجيش، لكن حدثت خطوة بعيدة وخطيرة، فقد جعل عماله على الولايات بعض الأقاليم إقطاعات تمنح لأحد القواد الكبار يتصرف فيها كما يشاء على أن يؤدى للخليفة خراجها، وكان أول ما فعل عامل تركي يدعى " أشناس" في سنة ٢١٩هـ / ٨٣٤م ثم أضاف الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م) إليه الجزيرة وبلاد الشام وضربت السكة باسمه[١].

فتحول الإقطاع هنا من إقطاع منفعة إلى إقطاع رقبة أي إقطاع تملك للأتراك فيما بعد فأخذوا يستبدون بالأمور، مما تسبب في ضعف الخلافة العباسية وتوزيع أراضيها وانحصار حكمهم في بغداد فقط.

وكما سبق أن أشرنا إلى شريحة الإقطاعيين المنتمين إلى طبقة الأرستقراطية حيث كان الأمراء يغدقون الأراضي الواسعة على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم، حيث يشير المقدسي في القرن الرابع الهجري إن أكثر الضياع بفارس مقتطعة[٢].

أما بالنسبة للوضع في عهد السامانيين حيث الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للشعب سيئة، ولاسيما في أواخر عهدها حدث التفكك السياسي والإداري عندما قرروا الاعتماد على العسكر الأتراك في الجيش، ولكي يكسب الأمراء تأييدهم ورضاهم اضطروا لإعطائهم بعض الأملاك والتي عرفت باسم الإقطاع، وكان تحصيل الأرض يفوض أحياناً للجنود، ومن ثم يحدث خلل في أمور الزراعة، فقد كان " ألبتكين" الحاجب التركي في بلاط

---

(١) جوزجاني، طبقات ناصري، تحقيق:عبد الحي حبيب، ط. كابل(أفغانستان)-جاب دوم ١٣٤٢ش، ص١١٥ ؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق : إبراهيم صالح، ط٢. دار صادر –بيروت ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٤٠٠ عبادة كحيلة، العقد الثمين في تاريخ المسلمين، ط١ دار الكتاب الحديث الكويت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص٢٢٨

(١) أحسن التقاسيم، صـ٢٥٠؛ شوقى ضيف، المرجع السابق، ص٥٠٣

نوح بن منصور(٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) السامانى صاحب ٥٠٠ قرية في خراسان وما وراء النهر وله في كل مدينة قصر وحديقة ومنزل قوافل[١].

وبالمثل كان الوضع في العصر الغزنوي لدرجة أن تحصيل الضرائب على يد الجنود والعسكر الذين يبتلعون الضرائب التي كان من المفترض أن توضع في الخزانة العامة، وذلك تحت اسم المقطع، ولم تكن لهم علاقة دائمة بالأرض وكل اهتمامهم في الغالب الحصول على أكبر فائدة من الأرض التي كانت تحت تصرفهم[٢].

فقد أدى هذا النظام إلى ظهور ما يسمى بالإلجاء – التضمين- الإيغار، ثلاث ظواهر هي السمات الأساسية للنظام الإقطاعي " فالإلجاء " يعنى : أن يلجئ الرجل أرضه إلى أمير أو قوى يحتمي به فيكتب باسمه ويقوم هو بدفع خراجها، وفي الغالب تؤول إليه في النهاية ملكيتها، أما "التضمين" : هو أن يجعل شخص كفيلاً بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وهو ما عرف أيضاً بنظام "الالتزام" أو القبالة، أما عن ثالث سمة للنظام الإقطاعي هو " الإيغار" : وهو أن يوغر الحاكم أو السلطان الأرض للرجل فيجعلها له من غير خراج أو هو يؤدي الخراج إلى السلطان فراراً من العمال[٣].

ومما ترتب على ظهور هذه السمات أن تقلصت الرقعة الزراعية، وما كان يزرع منها بالفعل اقتصر على الضياع السلطانية وإقطاعات الجند التي كانت تنتج بالأساس محاصيل زراعية بعينها يحتكرها السلاطين ويضاعفون أسعارها خصوصاً في أوقات الأزمات والحوائج[٤].

لقد ارتكزت العلاقة بين أصحاب الأرض والفلاحين على نظام السخرة، إذ اعتبروا عبيداً، أما الأراضي الخراجية – وهى محدودة – فقد أثقلت

---

(٢) مرتضى راوندى، المرجع السابق، ص٨٣

(٣)مرتضى راوندي، نفسه، ص٨٤

(١) محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص ٢٥٨-٢٥٩

(٢) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص٨٠

بالمغارم إلى حد أن أصحابها كانوا يتركونها غنيمة للسلطان أو العسكر، ولعل هذا يفسر لماذا كان سدس مساحة الأرض الزراعية في عهد الغزنويين مستغلاً بينما ترك الباقى دون زراعة[١]، ويرجع هذا البوار إلى إهمال مشروعات الري والسقاية والصيانة بالدرجة الأولى، إذ كان السلاطين يعتبرون الموارد المائية ملكاً خاصاً لهم [٢].

فلما أفضت السلطة إلى السلاجقة جعلوا نظام الإقطاع إقطاعاً عاماً، أي جعل البلاد كلها إقطاعاً للأفراد والجنود[٣]، فقد تم توزيع البلاد بين أفراد الأسرة الحاكمة، وبالفعل بدأ السلطان طغرل بك بتطبيق هذا النظام على أفراد أسرته منذ سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م عندما منح لأخيه (جغري بك داوود) إقطاعاً من نهر جيحون إلى نيسابور، ولأخيه من أمه (إبراهيم ينال) قوهستان وجرجان، ولإبن عمه(ابن علي الحسن موسى بن سلجوق) هرات وبوشنج وسجستان وبلاد الغور[٤].

وقد أورد الأصفهاني[٥] رسالة قد بعث بها طغرل بك وزيره عميد الملك الكندري قائلا : "بأن يقبض الإقطاعات ولا يترك للخليفة القائم بأمر الله قديماً ". يتضح من تلك الرسالة مدى سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية المتردية والوهنة وأيضاً مدى تكريس الإقطاع العام بصيغته الجديدة .

لاسيما أن الخلافة العباسية بالطبع تدين بالمذهب السني الحنفي، فكان لابد وأن تأخذ الدولة السلجوقية الصبغة الدينية لتؤكد شرعيتها، حتى لو كان شكلياً، ففي هذا السياق قد أفتى الإمام أبو حنيفة النعمان بجواز تأجير الأرض الخراجية لأحد المواطنين خلفاً لمواطن آخر عجز عن زراعتها وأداء

---

(٣) آشتور، المرجع السابق، ص٣٣٩، ٣٣٦، ٤٠٢

(٤) محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص٨١

(٥) جرجى زيدان، المرجع السابق،ج١، ص٢٣٧

(٦) الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ط. الموسوعات –مصر ١٩٠٠م، صـ١٨؛ منى محمد بدر، أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية، ط١مكتبة زهراء الشرق .القاهرة ٢٠٠٢م، ص١٠٦

(٧) تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٠

خراجها بشرط أن تكون هذه الأرض حق انتفاع وليس ملكية رقبة، وللإمام الحق في تأجيرها وأخذ خراجها من أجرتها[1].

لكن بالطبع تم استغلال تلك الفتوى–عن طريق فقهاء السلطة الأحناف- بشكل يميل لمصالح الحكومة والإقطاعيين من السلاطين والأمراء السلاجقة ومن قبلهم الخلافة العباسية، لكون الإمام أبو حنيفة أجاز للحاكم أن يأخذ خراجها، فعملوا على تحويلها إلى إقطاع رقبة وليس إقطاع منفعة، فضلاً عن أنهم أخذوا خراج الأرض المقطعة كإقطاع انتفاع لأنفسهم؛ مما نتج عنه في النهاية فساد وتدهور الزراعة وهروب الفلاحين من الأراضي.

وتبرز هنا ملاحظة آشتور[2] الذكية حين فطن إلى ارتباط السلطة السلجوقية بشريحة الفقهاء قائلاً : " فمنذ بداية بروز السلاجقة كمؤيدين للسنة والخلافة العباسية، فقد أقاموا حلفاً بين الخليفة والسلطان التركي طغرل بك الذي مثل شريحتين الفقهاء المحليين والضباط الأتراك، وقامت الدولة السلجوقية على التعاون بين هاتين الشريحتين" . أي من الواضح أن فقهاء السلطة يبررون مشروعية ظلم الحاكم وجوره عن طريق إصدار الفتاوى لصالح ما يملكه السلطان ولاسيما أنهم على المذهب الحنفي، لكنهم في الحقيقة هم أبعد ما يكون عن تعاليم المذهب الحنفي، بالإضافة إلى أن الفقهاء حازوا الإنعامات والاقطاعات مقابل مساندة السلطة وتولى مناصب القضاء والتشريع، مما نتج عنه مساهمة الفقهاء في تكريس الإقطاع بصيغته الجديدة.

أما الآن ننتقل إلى الحديث عن قوى الإنتاج أي قوى الاقتصاد ومدى تنوعه وتأثره بالنظام السائد أي الإقطاع، فلا نستطيع أن نفصل بين الحياة الاجتماعية والأنشطة التي يمارسها السكان سواء زارعي أو تجاري أو صناعي.

---

(١) تقي الدين الغزي المصري الحنفي، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تحقيق: عبد الفتاح الحلو،ط القاهرة ١٩٧٠م،ج١ ص١٤٠

(٢) التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطي، ص ٢٧٣

منذ مجيء السامانيين إلى خراسان واستقلالهم فيها بجانب إقليم ما وراء النهر حاولوا أن يستفيدوا من الأراضي الزراعية الموجودة ذات المساحات الواسعة، بحيث تم إنشاء القنوات ومصارف الري[١]، فقد قدم لنا جغرافيو القرن الرابع الهجري خاصة الاصطخري[٢] معلومات وافيه عن الجغرافيا الاقتصادية في خراسان وما وراء النهر، وتبين من هذه المعلومات أن القوى الإنتاجية في بداية عهد السامانيين قد تقدمت نوعاً ما من حيث الأعمال في مجال الري وبالتالي أصبحت هناك مساحة كبيرة من الأرض المزروعة، فضلاً عن تقدم في إنشاء القنوات لدرجة أنهم يوصلون المياه عن طريق القناة إلى مسافة خمسة أيام في الطريق (١٢٥كم) توسع استعمال كل أنواع الري عن طريق الجداول والأنهار الفرعية المتفرعة من النهر والقنوات والآبار، وأنشئت السدود والسدود المتحركة والمصارف الخاصة لجريان المياه أثناء حدوث الفيضان[٣].

وفي ذلك العصر استخدمت أنواع عديدة من عجلات الآبار بجانب التوسع في زارعة المحاصيل القديمة وشاعت زراعة الأنواع الجديدة وتوسعت بصفة خاصة زراعة الأرز والتي لم تكن موجودة تقريباً في عهد الساسانيين، وفي تلك الفترة كان الأرز يزرع في خراسان، وقد شاعت الزراعات الجديدة مثل الموالح في المناطق المنخفضة في جنوب إيران[٤].

وقد ساعد السامانيين على ذلك أنهم كانوا دائمي الإغارة على مناطق الزراعة الإستبسية الخضراء، مثلما حدث عام ٢٧٨هـ / ٨٩٣م عندما فتحوا مدينة طراز[*] والتي اتسعت تجارتها بشكل كبير[١]. الأمر الذي فتح آفاقاً

---

(١) مرتضي رواندي، المرجع السابق، صـ ٨٦، ٨٧

(٢) المسالك والممالك، صـ ٢٦٨ وما بعدها

(٣) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص٨٧

(٤) نفسه، نفسه، ص٨٧

(*) طراز : هي الاسم العربي لتلاس(Talas) وهو نهر في آسيا الوسطى ويطلق الاسم على المدينة القائمة عليه، ولعلها كانت قرب مدينة (أوليا آنا الحديثة) وطراز مدينة تجارية لم يدخل الإسلام فيها إلا على يد السامانيين إثر حملة الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م، وكانت طراز في عهد السامانيين مركزاً تجارياً هاماً على حدود أراضي المسلمين والترك فيما وراء النهر . (

جديدة أو نمطاً آخر غير الزراعة ألا وهو الاقتصاد التجاري.

فبعد انسلاخ الأقاليم في المشرق عن الخلافة العباسية أصبحت هناك قيود كبيرة على التجارة الحرة على عكس ما كان موجوداً في ظل العصر العباسي الأول الذي لم يفرض فيه المكوس الداخلية على البضائع التي تنقل من ولاية الى أخرى،أما الآن فرض كثير من الجمارك والمكوس الثقيلة، فأدى ذلك إلى تعطيل للنشاط التجاري، مما أثر على صغار التجار بالسلب فانعكس تلقائياً على أسعار السلع، ليس هذا فحسب بل إن الحكام في الأمصار كانوا يرغبون في زيادة دخل حكوماتهم فيرهقون الأهالي بأنواع من المغارم والجبايات لم تكن معروفة في أيام العصر العباسي الأول .

فقد كانت هناك طرق التجارة الخارجية المتصلة بالملاحة البحرية فيما تسمى بتجارة العبور، نظراً للجغرافيا الطبيعية المدهشة التي منحت إقليم خراسان وما وراء النهر مكسباً كبيراً، حيث نهر جيحون نهر صالح للملاحة تجري فيه السفن حتى الساحل الجنوبي لبحيرة خوارزم، وكذلك نهر سيحون صالح لنقل البضائع طوال العام[٢].

أما أهم الطرق التجارية الخارجية فقد تمثلت في الطريق التجاري بين بلاد الروس والمشرق ويبدأ من شمال روسيا عبر بحر قزوين ويسير في بلاد فارس حتى مرو ثم بخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر حتى يصل إلى الصين ويحمل التجار معهم جلود الحيوانات والسيوف والعسل، كذلك يوجد طريق من نهر السند إلى بلاد فارس عبر سجستان ثم إلى كابل وغزنة ثم يتجه نحو خراسان ومنها إلى بخارى[٣].

انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، صـ٢٧٤؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج١٥، ص١٢٠ . مادة طراز).

(١) عبد الفتاح السرنجاوي، الخلافة العباسية(النزعات الاستقلالية)، ص٣٩

(٢) محمد أحمد جودة، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد ما وراء النهر من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة السامانية (رسالة دكتوراه)، ص١٤٠

(١) المقدسي، المصدر السابق، صـ٢٧٦؛ محمد أحمد جودة، المرجع السابق، ص١٤٣

إن الموقع الجغرافي لبلاد ما وراء النهر المتمثل في وقوعها على طريق التجارة العالمي بين الشرق والغرب وهو المعروف باسم طريق الحرير، قد جعلها هدفاً للسيطرة من قبل الدويلات التي قامت في غربها بهدف الاستفادة من النشاط الاقتصادي الضخم والمكاسب المادية الوفيرة من وراء طريق القوافل التجارية المارة بطريق الحرير، كذلك وفرة مصادر المياه وتنوعها جعلها فريسة لأطماع القوى السياسية المحيطه بها [1].

لعل هذا يفسر الصراع بين السامانيين والأتراك القراخانيين الشرقيين في أواخر عهد السامانيين لمحاولة السيطرة على تلك الطرق، بجانب دخول الغزنويين طرفاً في هذا الصراع والذي أفضى بالفعل إلى إقصاء السامانيين عن ما وراء النهر ومجيء القراخانيين، وقدوم الغزنويين إلى خراسان والسيطرة على تجارة العبور.

فضلاً عن مناطق التبادل التجاري شرقي آسيا والهند، وأهم صادرتها التوابل والعطور والخشب والأحجار الكريمة والسيوف[2] مما جعل الغزنويين يحكمون السيطرة عليها.

ومن ضمن أنواع التجارة كان هناك نوع خاص من تجارة العبيد وهو شراء وبيع الغلمان والشبان الأتراك الذين كانوا يباعون من أجل الخدمة في فرق الفرسان، وحظيت هذه التجارة بمراقبة الحكومة، حيث أجبر التجار على عرض الغلمان أولاً على الحكومة لبيعهم[3]، ولعل هذا يفسر قيام مسعود الغزنوي بغارات متلاحقة على إقليم الغور لاشتهاره بالعبيد والغلمان.

مما سبق يتضح مدى تباين قوى الإنتاج ما بين الاقتصاد الزراعي– الرعوي الذي ارتبط بالبداوة التركية (الغزنويين – السلاجقة) والتجارة، لكن بسبب الحروب والصراعات المستمرة للحكومات السامانية والغزنوية

---

(٢) محمد جوده، نفس المرجع، ص٢٢٩

(٣) المقدسي، نفس المصدر، صـ٢٧٧؛ شوقي عبد القوى عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، ط المجلس الوطني للآداب . الكويت ١٩٩٠ م، ص٢٠٧

(٤) المقدسي، نفسه، صـ ٢٦٠؛ مرتضى راوندى، نفسه، ص٩٢

والسلجوقية- سواء حروب إقطاعية بين الأمراء الإقطاعيين أو صراعات سياسية خارجية- تقلصت وفسدت الأراضي الزراعية وأصبح النمط الاقتصادي الزراعي هش لا يستفيد منه سواء النبلاء والأمراء فقط.

وبكساد الزراعة كسدت أيضاً التجارة بالرغم من طرق التجارة والجغرافيا الطبيعية المميزة الموجودة بسبب التطاحن والصراع القائم بين السلطات والحكومات، بل وصل الأمر لمصادرة الأمراء لكبار التجار وفرض مكوس وضرائب إضافية تسببت في ارتفاع الأسعار، مما انعكس على ارتفاع أسعار خامات الصناعة واقتصرت الصناعة على الكماليات والرفاهية دون السلع الأساسية.

كما حدث في عهد السلاجقة فقد حدث تقدم في مجال التعمير والنهوض بالصناعات المعدنية وصناعة السجاد والنسيج خاصة في صناعة الأطباق الخزفية والفخارية [1]، فضلاً عن الحلي والمسكوكات.

حتى أن مجال التعمير الذي تقدم فيه السلاجقة كان لخدمة أغراضهم إما عسكرية أو عمائر دينية للمتصوفة – كما سيأتي ذكره في موضعه- لتكريس طرق الدروشة والهروبية والبعد عن الواقع ولكسب ود الجهلاء من العامة.

بل إن الطبقة الوسطى قد كان بها فروق في عهد السلاجقة، حيث إن نظام الإقطاع العام قد زاد الفرق بين شرائح تلك الطبقة، فأصبح في خراسان شريحة صغيرة من التجار أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة وعلى النقيض تجار مصرفيون أغنياء أصبحوا وكلاء وزراء ذوي صلة بالسلطة الحاكمة[2]، الأمر الذي أثر تأثيراً كبيراً على كساد التجارة والصناعة ؛ لأنه نشأ نظام احتكار سلع بعينها وفى ظل نظام الاحتكار فقد كثير من صغار التجار تجارتهم بجانب تضخم في قيمة العملة أصاب الأسواق بالركود.

قصارى القول بعد هذا الرصد الدقيق والمفصل – إلى حد ما – لمعالم قوى الإنتاج في خراسان في ظل النظام الإقطاعي على مدى العهود الثلاث السامانية

---

(١) مرتضى راوندي، المرجع السابق، ص٩٢

(٢) آشتور، المرجع السابق، ص٢٧٧

والغزنوية والسلجوقية، وضح مدى تكريس الفساد وكساد الإنتاج بصوره المتعددة الأمر الذي جعلنا نقول بأن عصري الغزنويين والسلاجقة على الأخص هما عصرا الفساد والتدهور الاجتماعي و الاقتصادي بجميع صوره، بينما نري أن العصر الساماني هو أقل العصور الثلاث فساداً حيث شهد إصلاحات على الصعيد التجاري والزراعي في بداية عهده بعض الأمراء العادلين نوعاً ما مثل الأمير إسماعيل ابن أحمد أيضاً مما انعكس على الحالة السياسية والصراعات المذهبية.